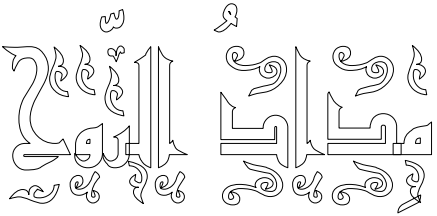

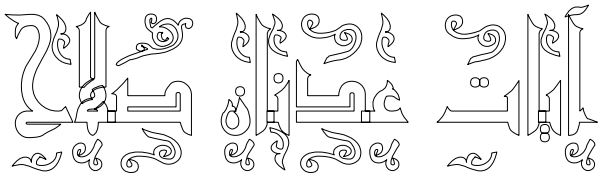

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2023/6/3029)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب: مدادُ الرّوح

تأليف: صلاح ، آيات عدنان رضوان

بيانات النشر عمان ايات عدنان رضوان صلاح ، ٢٠٢٣

رقم التصنيف: 819.9

الواصفات: الخواطر الأدبية// الأدب العربي//العصر الحديث

الطبعة : الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9923-0-0701-3 (ردمك)

المراجعة والتدقيق اللغوي : الأديب رائد محمود العمري

الإعداد والتنسيق الطباعي : مكتب القيصر لخدمات التدقيق والتنسيق والطباعة

الأردن _ إربد ٠٧٧٧٦٨٠٦٩٤ / ٠٧٩٩٦٢٤٢١٣

كافة حقوق النشر والتوزيع محفوظة للمؤلف : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

الإهداء

إلى اللُّغة الّتي ما فارَقَتْ أَنامِلي وشِفاهيَ وحلمَ الأهدابِ العتيقِ، إلى الحروفِ الّتي تُصِرُّ أنْ تُشعِلَ رمَادًا اندثرَ.

إلى اللُّغة المُلازِمةِ فَرحي وقَهري ودَمعي، تلكَ العربيةُ المُتَمَرِّدَةُ، تُلقِي مدادَها على وَرَقيَ الأصفَرِ وتخاريفَ الفنجانِ المقرُوءِ قبلَ سُقوطيَ الأخيرِ، فكيفَ لِيَ أنْ أَنسَى مَن لازمَ بواعثَ الرُّوحِ والرِّيحانِ، وقَبَضَ على يَدِي وألبسَها اليراعَ عندَ كُلِّ انهيارٍ أو انتصار، وقَذَفَ في قلبيَ الأمانَ بعدَ كلِّ بوحٍ أثقلَ أيامي، إليكِ أيَّتُها الأبجديَّةُ العصماءُ

وأيُّها الحرفُ الحَييُّ أُهدِي مولوديَ الأولَ.

المقدِّمةُ

قبلَ عامٍ من لحظةِ ميلادِ حروفيَ على الورقِ، كُنتُ على مشارفِ نهايةِ حلمٍ كانَ الأشهى إلى قلبي، غَذَّيتُهُ من نبضيَ وَسقيتُهُ العبراتِ لكَنَّ اللهَ شاءَ أنْ نُبَخِّرَ بأيدينا ما كتبناهُ على الماءِ، لَعنَةُ الإرادةِ رافقَتِ الدَّرب، أُصرُّ على الحربِ وتُصرُّ الحروبُ على الانسحابِ الدّائمِ، كأنَّها تَخجَلُ الانتصارَ أو الهزيمةَ أماميَ.

عدْتُ مُثقَلَةً بالصَّمتِ والاستمرارِ رافضَةً البقاءَ والرُّؤيةَ محاولةً انتزاعَ أيِّ شيءٍ يُبقيني مُشتَعِلةً أو على الأقلِّ يُذَكِّرُني بأحرفِ اسميَ، تاهَتِ الأنفاسُ وَتَعرَّقَتِ الأحلامُ وهي على الضِّفافِ تُصارِعُ ذاتَها، إلى أنْ ساقَتني أقدارُ اللهِ لا سواها إلى رُفوفيَ الأَثمَنُ والأَعتَقُ والأعرَقُ، إلى تلكَ الشَّهوَةِ المعجونَةِ مع خلايا الجسدِ.

دخلتُ طريقًا لم يُثِرْ فضوليَ لأنِّي ضليعةٌ في زقاقِهِ وأرصفَتِهِ وشُقوقهِ مُتيَّمَةٌ في خفاياه، كنتُ دونَ شعورٍ بلهاءَ تُلقي السَّلامَ على أَرضٍ رَوَتها مِرارًا دونَ أنْ تنتظرَ الثَّمرَ، فعاتَبَتها الأَرضُ والبشرُ، لامُوا ثَباتَها على فِراقِ اللُّغة الّتي ما فارقتْ صومَعَةَ عبادتها، نادتها الأيادي والليالي نَفَضتْ غبارَ عشرينَ عامًا، طَوَّعتْ فيهم القلم بشغفِ المُدمنِ على أثمنِ الأَجساد الحُرَّة.

كُلُّهم نادوا، أينَ مَن ملكَتْنا عُمرًا وهربَتْ من القدرِ؟

جِئتُكُم الآنَ مُعتذِرَةً نادمةً على العمرِ الّذي رَحلَ، أرادَتِ الحياةُ أنْ تَنتَزِعَ الزّخارفَ لأرى ما أَملِكُ من الدُّرَرِ. طويلٌ دَربيَ عميقٌ كَلِمي، غريبٌ رُجوعيَ والأغربُ ذلكَ القدَرُ.

رُبَّما منْ يَقرأُ التّعويذةَ السَّابقةَ لنْ يَفهَمني ولنْ تُقدِّمَ لَهُ المُقدِّمَةُ أيَّ أَثرٍ، لكن هيَ وأنا نَعرفُ الخَبَرَ.

نُدرِكُ أَنَّ أَوّلَ كتابٍ لم يَكنْ أنا بقدرِ ما كانَ استرجاعًا لذاتيَ، وطَرقًا للبابِ الأَوّلِ والقدرِ الّذي أَيقظْتُهُ وأيقنَ أَنّهُ من قلبي انهمرَ.

عَصيُّ الحَرفِ

كلماتٌ عالقةٌ في أعماقيَ مُنذُ سنواتٍ وسنواتٍ، تَأخَّرَ الوِصالُ كثيرًا تأخَرَ ولا أعلمُ لماذا؟

كَتبْتُ كثيرًا، صُغتُ الحروفَ مِرارًا ودوَّنتُ الأفكارَ زاوجتُ المسائلَ والمشاعرَ والمشاكلَ، لكن كُلّما حَدّثتُ نفسيَ وعاهدتُها على البدءِ تراجعتُ كأنَّ عُمرَ الكلماتِ يُجهَضُ عندَ إعلانِ الميلادِ ، أو رُبَّما هوَ الخوفُ من الاستمرارِ ورحيلِ الشَّغفِ، فمَن يُحرِّكهُ الشَّغفُ وقودُهُ صعبٌ.

أنا نَفسي لا أعلمُ السّبَبَ! الحلمُ تَكوّنَ داخلي قبلَ الوجودِ قبلَ أوَّلِ هدفٍ ، لكنْ تلاحقَتِ الأهدافُ والنّجاحاتُ والحسراتُ وما زالَ الحلمُ عالقًا بين يديّ وحلقيَ.

قليلُ الصَّبرِ يكرهُ الطُّرقَ الطَّويلةَ الكلماتِ ، المديدةَ بالحبرِ والورقِ والأرواحِ، لا يملكُ جمرًا كافيًا ليُحرِقَهُ فوقَ مئاتِ الأوراقِ .

الشَّغفُ يُشعِلُ القلمَ - متعبٌ هذا المخلوق الّذي يَأبى أن يُقدِّمَ شيئًا خاليًا من الشّغفِ- يُحِبُّ الشُّعورَ بالحرفِ لمسَهُ عِناقهُ ، يُحبُّ مع كُلِّ كلمةٍ أن يَحتضِنَ الحرارةَ فيها قبلَ الورقِ .

هذا أنا أتأَخَّرُ كثيرًا لأنِّي أشعرُ ، أَلمسُ حرارةَ الحرفِ بقلبِيَ؛ لينبضَ بعدَها القلمُ .

رغمَ تواضعِ طريقيَ وخيليَ إلّا أنَّني بدأتُ، تُقَدِّمُ الحياةُ أحداثًا فريدةً بِحلوِها ومرِّها ؛ مِنها ما يستحقُّ الذّكرَ ومنها ما يَكبُرُ فينا، وأحداثيَ ليسَت بالعظيمةِ ولا العدميَّة، حياةٌ صُقِلَت

بين إرادةٍ أُنثويَّةٍ وإنجازاتٍ سطحيَّةٍ ، أردتُ الكثيرَ، أردتُ الحرفَ دائمًا وهو كذلكَ أرادَني، لكنْ وبكلِّ صِدقٍ لم أُعطِهِ حقَّهُ أبدًا لذلكَ لم يَهَبْنِي روحَهُ .

جاءَ وقتِي مُتأخرًا عن عمرِ الكلمةِ لكنْ أتمنى أن يكونَ قد أتى؛ لأُقدِّمَ بَردَ الشُّعورِ عند اشتعالِهِ وعندَ الرّحيلِ.

كُلُّنا عبارةٌ عن كلماتٍ ، أوَّلُ ما نحمِلهُ معَنا عندَ قُدومِنا أسماءٌ، ثمَّ تتوالى الحروفُ واللُّغاتُ، نُعلِنُ ثقافتَنا بكلماتٍ ،نرفعُ صوتَ المُعتقداتِ بكلماتٍ، نُناجِي اللهَ بكلماتٍ، نَغرسُ العلمَ بكلماتٍ ،نُعلنُ الحربَ بكلماتٍ، نُقْتَلُ بكلمةٍ ، نُهانُ عندَ السُّكوتِ عن كلمةِ حقٍّ، نَعشَقُ بالكلماتِ، لم يُخلَقْ حُبٌّ دونَ كلماتٍ، حتَّى عندَ الموتِ ترثينا الحروفُ والكلماتُ.

أَدركتُ الصَّمتَ

كُلَّما اقتربتُ من لَحظاتِ فراقِ عامٍ مَضى واستقبالِ عامٍ جديدٍ، فَهمتُ حكمةَ اللهِ، استوعَبتُ ماذا يصنعُ العُمرُ من تَبديلٍ وتحويلٍ وتَفنيدٍ لكلِّ ما حَملناهُ من مفاهيمَ، أدركتُ الآن لماذا نزلَ الوحيُ على سَيِّدِ الخَلقِ بعدَ انقضاءِ زهوِ الشَّبابِ ورَيعانِهِ، لماذا اختارَ اللهُ لِابتداءِ النّبوةِ عُمرَ الأربعينَ.

ننضَجُ معَ السَّنواتِ نَترُكُ الضّجيجَ والزِّحامَ وتَعدُّدِ الأرواحِ والشّخصياتِ؛ لننفَرِدَ بصمتٍ أمامَ طوفانِ الكلماتِ، كلَّما زِدنا استيعابًا وحكمةً، زِدنا انفصالًا وتخلِّيًا وهدوءًا .

نهربُ من الجديدِ ومن كلِّ يدٍ تُمَدُّ، يكونُ محورُ الجمالِ والمتعةِ التّجليَ مع كتابٍ أو صمتٍ أو رداءِ أحلامٍ، حتَّى مَحجَرَ عيونِنا يَتجمَّدُ لا يُعطي جوابًا لأيِّ قريبٍ أو غريبٍ .

يصبحُ فَرحُنا أقلَّ جنونًا، وحُزنُنا أقلَّ إيلامًا، وغدرُهم أقلَّ تأثيرًا، يتقلَّصُ عُمقُ الإحساسِ إلى أن تَتَلاشى بِداخِلِكَ معاني البشرِ.

لحظةُ الهروبِ من دوامةِ الحياةِ والعملِ والوجوهِ تصبحُ أجملَ لحظاتِكَ، وأكثر الأُنسِ لديك فنجانُ قهوتِكَ وركوةُ أوراقكَ.

تَحمدُ اللهَ على كلّ ما تمَّ من النِّعَمِ، وكلِّ ما لم يَتمْ، تُدرِكُ الآنَ أنَّ الفقدَ رقيٌّ مادام ليس للأرواحِ منهُ نصيبٌ، تَتَساوى أكاذيبُ النَّاسِ لديكَ معَ صِدقِهِم، ويَتساوَى الخُبثُ والطُّهرُ، كُلُّهم وجوهٌ لِلَونٍ ونَقيضِهِ لا أكثرَ .

تُدرِكُ أكثرَ أنَّ من يُثَرثِر ليرفعَ غِناهُ هو أفقَرُ الخَلقِ حاجةً واحتياجًا، وهو أكثرُ الأرواحِ جوعًا ونقصًا وأعظَمُهم حرمانًا، فقد دفعَ ضريبةً لن يَقدِرَ عليها أحدٌ مقابلَ أوهامِ شَبَعِهِ أمامَ النّاسِ.

تُوقنُ أكثرَ أنْ منْ يُثَرثِرُ؛ ليرفعَ علمَهُ هو أجهلُ الخلقِ وأكثرُهم ضياعًا في غياهبِ الغباءِ، وتدرِكُ أنَّ مَن يَمكرُ ويَمكرُ ويخطِّطُ لنصبِ شباكٍ ومكائدَ وحروبٍ هو أشدُّ الخَلقِ سقوطًا وخسارةً ؛ لأنَّهُ فوقَ شِباكِ مكرِهِ يحيقُ به مكرُ اللهِ ، فيسقُطُ حتَّى تسمعَ قعيانُ الجنِّ ارتطامَهُ.

تعي أكثرَ وأكثرَ أنَّ للصمتِ قُدسيَّةً، وأنَّ العتابَ شرفٌ لا يُهدَى إلا لمن هو أهلٌ لهُ، وأنَّ التّخليَ مَكسَبٌ ، وأنَّ اللهَ رعاكَ وحماكَ وسقى دربَكَ بكرمٍ لا حدَّ لهُ، وجُندٍ لا عدَّ لهُ، وأنَّهُ سخّرَ لكَ ما تستحقُّ ورافقكَ في كُلِّ النّجاحاتِ، ودعمَ قلبَكَ في كُلِّ الخساراتِ، حتَّى أدرَكتَ أنَّها مَكاسِبٌ.

وتدركُ أيضًا أنَّه ما انتهى عامٌ وأنتَ تتنفَّسُ إلّا ليهبكَ عامًا وهو يَحرُسكَ، وأَنَّ اللهَ هوَ الوحيدُ الّذي يَعجزُ اللِّسانُ عن تَمام شُكرِهِ، وأنَّ هدوءَ روحكَ قيمةٌ لم تُدرِكْ كَنهَهَا سابقًا، وأنَّ قيمةَ الكلِّ واحدةٌ فلا تفرَحْ بعطاءِ أحدِهِم ولا تَحزَنْ من منعِهِ، عندما يَتساوَى المدحُ والذّمُّ لديكَ، اعلمْ أنَّكَ وَهَبتَ كُلَّ قطرةِ عَرقٍ لربِّ الكلِّ، لا تُفكِّرْ إلا بالابتسامِ أمامَ الهدمِ والذَّمِّ، لا بَل أحيانًا يكونُ الذَّمُّ أقلَّ إيلامًا من المدحِ، كبرتُ حقًّا لدرجةٍ لم أدركْ متى وصلتُ وكيفَ وأينَ؟

لكنَّني كبرتُ، كبرتُ وركَلتُ كلَّ ارتفاعٍ أوهبوطٍ، كُلّ مُحبٍ أوعدوٍ، ركلتُ المستقبلَ والماضي، كبرتُ دونَ اعتراضٍ

أو حُزنٍ أو شكوًى، كبرتُ وتكلَّلتُ بالرّضا والرّضا دونَ أيِّ شيءٍ آخَرَ .

مُرهَقَةٌ أَنا

مثلُ مُحاربٍ مُتعَبٍ تَرَكَ أَحلامَ نَصرهِ ورايَاتِهِ وعشقَ الغَجريةِ الرَّشيقةِ، مثل شمسٍ تَعزِفُ الرَّحيلَ خيطًا نرجسيًّا تابَ عن ذاتِهِ ومَضى، يُلقِي خلفَ وديانِ التّيهِ آمالَهُ .

مثلُ حُبِّكَ أنا لا أسمعُ لا أرى، أتعبَنيَ السَّيرُ خلفكَ، أرهقَني السَّرجُ والخيالُ، كُلَّما فكَكتُ قيدًا كبَّلتَني بأغلالٍ، مثلُ الحبِّ أنا أعيشُ على التَّمردِ أتنفَّسُ الوحدةَ والغموضَ، ومثلُ الشَّجرِ أنتَ زيتونٌ أصيلٌ ثابتٌ تَأبَى الرَّحيل، تَحمِلُ كُلَّ خوفِ المجهولِ وأحملُ كلَّ الأمانِ.

لمْ أعدْ أخشَى شيئًا لَم أعدْ أخافُ الجُموحَ، هو ذاتهُ اللهُ أينَما حَللتُ أو ارتحلتُ، هو من حَمانِي ورَعانِي، عَرفتُ معنَى أنْ يُحبَّكَ اللهُ أن يُجنّدَ لكَ الكلَّ أيقنتُ أنَّ الأمانَ معهُ لا سواهُ، أصبحتُ أهوى البعدَ والرَّحيلَ .بنتُ الغيمةِ أكونُ وأنتَ ابنُ الأرضِ.

تَوقَّفَتْ فصولُ الحكايةِ وتوقَّفَ الغدُ الأخضرُ، كانَ الوداعُ مريرًا، بطعمِ شَوكِ صَحراءَ قاحلةٍ، سقطتْ دموعُ الغروبِ حاملةً لونَ الخريفِ، مرهقةٌ أنا وخائفةٌ من كُلِّ ما اعتدته وعشتُهُ، لم أكنْ أعلمُ أنَّ فِراقَ الغريبِ مُرٌّ.

سلامٌ عليكِ يا أرضَ الجمالِ والحبَّ، سلامٌ عليكِ وعلى كُلِّ ذِكرى وضحكةٍ ونزهةٍ وكُلِّ غروب يفيضُ القلبُ بهِ.

(هي مدنٌ حياتِنا)

نحيا بِها أو تَحيا بِنا، وأنتِ مدينةُ التَّاريخِ بلا منازعٍ، بنتُ المآذنِ والأمواجِ، أستودِعكِ اللهَ وأُلقِي القلبَ إليكِ، احفظي عَهدَنا والقُبَلَ لعلَّ بعدَ ذلكَ لقاءٌ.

كيفَ لي أن أنسى من عَلَّمني الصَّمتَ والوَقارَ؟ من داعبَ شغفَ التَّاريخِ الممزوجِ بِدَمي، كيفَ لي أن أنسى مَن دَثَّرَ حُزنيَ وفرحيَ بأمواجِ مَضيقِهِ، كيفَ لي أن أنسى تَوحُّدي مع الطّبيعةِ مع الأرضِ والشَّجر، سمعتُ همسَ الأوراقِ، كانتْ تُوَدّعُني كُلَّ خريفٍ وتَطرقُ بابَ الفرحِ مع الرّبيعِ تُناديني؛ لألهوَ مَعها وأتنفّسَ شهيقَ البحرِ .

كم مرةً واسيتُ الشَّمسَ! كنتُ لها السَّندَ كنتُ أَلثمُ قَلبَها المعصورَ ألمًا مع كُلَّ غروبٍ، أُواسي دَمعَها، وأقولُ لَها:" كُلّنا عند النّهاياتِ أجملُ وأبهى، فكيفَ أنتِ ؟"

لن يفهمَ أَحدٌ ما كُنَّاهُ، فنحنً عبارةٌ عن تركيبٍ كيميائيٍّ فريدٍ بين مَدينةِ حُبٍّ وقلبِ عاشقٍ تاريخيٍّ، سمعَ كُلَّ صهيلِ خيولِكِ والتّكبيراتِ، صافحَ الفاتحينَ، وَكسرَ صلابةَ أَسوارِ القسطنطينيّةِ.

سَنَمضِي أنا وأنتِ، ولكن سيبقى هنالك في حشائشِ الجدرانِ العتيقةِ سرُّنا سيدةُ التّاريخِ بلا منازِعٍ .

إسطنبول

٢٠٢٢/٨/٣٠

عرائسُ العقول

عندما يَسرقُني الألمُ وتَكبرُ فَجوةُ البشرِ في قلبيَ وترنو روحيَ إلى البُعد، إلى مُلامسةِ خَلقِ اللهِ ومخلوقاتِه، إلى مداعبةِ هفواتِ الحُبِّ المُبعثرَةِ على أتربةِ الماضي، إلى مُحاورةِ أرواحٍ غادرَتْ أرضَ اللهِ مُتَّجِهةً إلى سمائِهِ، عندما يُعقَدُ قِرانُ الصَّمتِ بأبهى صُوَرِهِ، وَتُزَفُّ عروسُ الشَّرقِ فوقَ أسوارِ غرناطة مُنشِدَةً موشحاتِ الفتحِ الأعظمِ، أكونُ أنا هُنا قابعةً خلفَ كتابيَ وقلميَ.

أُحاولُ لَملَمةَ الأملِ والشّعورِ والبعثِ من جديدٍ، لروحٍ نَأَتْ عن الأفواهِ، تعبتْ من الكلامِ، لروحٍ تَهربُ منَ الكلِّ إلى الأوراقِ، إلى تلكَ الجماداتِ الحيَّةِ النّابضةِ بقلوبٍ عديدةٍ، قلوبٍ غادرتْ الواقعَ أو تنتَظرُ الرَّحيل، تلكَ الدّماءُ الرّقيقةُ المُنسابةُ من شفاهِ الكتبِ، تلكَ هي عالمي فردوسي المفقودُ مع البشرِ، منها أستمدُّ ما ضاعَ مني منها أقفُ مجدَّدًا أَصلَبَ مِمّا مَضى وأكثرَ انسيابًا مع الآتي.

هُنا بينَ حروفِ العلماءِ وأفكارِ الأدباءِ وخيالِ الشُّعراءِ وشِعابِ المفكِّرينَ، هُنا بينَهم أَبْعَثُ من جديدٍ، أشعرُ بِمُلكي وقوةِ سُلطَتي، فأنا أبدأُ الحكايةَ وأنا أُنهي متَى شِئتُ طقوسَ الرّوايةِ، أنا الخَصمُ وأنا الحَكَمُ، هُنا تَمامًا أكونُ أنا.

ما زلتُ أُفكِّرُ لماذا لا يرحلُ المُتعَبُ إلى محطاتِ الكتبِ؟

لماذا لا يستزيدُ مِنها كما يَستزيدُ وَقودًا لمركبته، وطعامًا لمعدتِه، وحبًّا لقلبه؟

لماذا لا يركضُ الشّابُ ويُهرولُ الكهلُ وتَتبختَرُ الحُرّةُ نحوَ الكتبِ؟ أليسَ العقلُ أحقُّ بالمشقَّةِ؟ لماذا نرمي جهودًا مُجَمَّعةً بكتابٍ؟ تعبًا محصودًا جاهزًا للتناولِ، ثمارًا قَضى أصحَابُها أعوامًا عديدةً في رعايَتها وتسميدِها وحصادِها.

رُبّما نحنُ البشرُ لا نَحفَلُ إلا بالمادِيَّاتِ والمحسوساتِ، ولو عَلمنا الكمَّ المنزوعَ من عقولِ الكُتَّابِ والمُنسابِ في كتبِهم لسابَقْنا الكاتِبَ على الحروفِ الّتي يَنثُرُها.

محرومٌ هذا الّذي يقبَعُ خَلفَ قَوقَعةِ الواقعِ دونَ هُروبٍ وانسحابٍ تكتيكيٍّ إلى عالمِ الورقِ، هذا الّذي يُصارِعُ الرِّزقَ واليومَ والعبادَ دونَ الهروبِ عندَ انكسارِهِ إلى قلوبِ البشرِ وما حَوَت أقلامُهُم، مَحرومٌ من لم يُسافرْ مع ابنِ بطوطةَ إلى الأنهارِ والجبالِ الشّواهقِ والبحارِ، محرومٌ من لمْ يغرَقْ مع أيمنِ العتومِ في غياهبِ السّجونِ العربيَّةِ، ومَن لَم يَفكَّ ويُحلِّلَ شيفراتِ ورموزَ التّاريخِ العتيقِ مع دانِ براونِ، مَن لَم يَغرِفْ كُؤوسًا من النَّبيذِ المُعتَّقِ مع شعراءِ المعلّقاتِ، مَحرومٌ من لَم يُلامِسْ طِبَّ ابنِ سينا، مَن لَم يُجالِسْ العظماءَ المائةَ مع جهادِ التُّربانيَّ، محرومٌ مِنَ الحُبِّ مِنَ الهوى مِنَ الجوى مَن لم يَعشقِ الأُنثى العبريَّة بينَ مدادِ خولة حميدي، ومَن لَم يُصَبْ عقلُهُ بالجُنونِ والمَسِّ معَ أحمد خالد مصطفى، مَحرومٌ مَن لَم يَتنفّسْ أحدبَ نوتردام والخيميائيّ، ومَن لَم يَنغَرسْ بأمّهاتِ الكُتبِ، مَن لَم يُصلِّحْ قَاربهُ جيدًا ليركبَ أمواجَ القرآنِ وتفسيراتِهِ وكتبِهِ ومُراجعاتِهِ.

جافُ القلبِ مَن لَم تَدمَعْ عينَاهُ مع أدهمِ الشّرقاويِّ في كلِّ كتاباتهِ، مِسكينٌ مَن لَم يَذقْ طَعمَ البُؤسِ مع فيكتور هوجو،

مجنونٌ مفجوعٌ دونَ موتٍ من تركَ ما لا يُتركُ؛ ليجالِسَ ما لا يُجالَسُ.

السَّفرُ يُعلِّمنا طَبائِعَ الأمَمِ والشّعوبِ، نَنهلُ منهُ اختلافَ الطّوائفِ والألسنِ والعقولِ والثّقافاتِ، نعودُ بعدَ الاغترابِ نسخةً مفصولةً عن ماضيها عن ذاتِها الأولى عن ذاكرَتِها ؛ لنصبحَ نسيجًا من مُختلفِ الخيوطِ والألوانِ، فما بالكَ بالسَّفرِ إلى كلِّ الشُّعوبِ وكلِّ الثّقافاتِ والأمَمِ إلى رحابِ الغربِ، وباحاتِ الشّرقِ الرَّحبَةِ، إلى شُموسِ أفريقيا وهنودِ أمريكا، إلى خيالاتٍ وأحلامٍ ومشاعرَ وأفكارٍ ودروبِ البشرِ، والغوصِ في الماضي القريبِ والماضي السَّحيقِ، وَرشفِ تَجاربِ الأنبياءِ ورُسلِ السّماءِ .

الكِتابُ هو الطّريقُ هو الحروفُ الّتي تَربِتُ على كتفيكَ وتُداريَ حُزنَك وترفَعكَ من الملاسناتِ البلهاءِ إلى عقولٍ غنَّاءَ، من فوضى الدّنيا إلى أناقةِ الحرفِ، من كَيدِ النّفوسِ إلى خفايا الكنوزِ مِن مُقارعةِ الحاسدينَ إلى مُجالَسةِ المُبدِعينَ.

الكتابُ سفينةٌ سُكانها جواهرٌ، أشرِعتُها منابرٌ، مرساتها ثوابتٌ ،قُبطانُها الفكرُ، فكنْ مسافرًا عابرًا للأمواجِ مُتحدّيًا العواصفَ قُرصانَ الصّعابِ لا حجرَ ميناءٍ يَدوسهُ المُسافرون؛ ليمضوا وهو ثابتٌ لم يذقْ حلاوةَ التّجربةِ وحلاوةَ التّجذيفِ.

تَصوُّفٌ

تورَّطتُ في أَحلاميَ، في ضَياعيَ، في فنجانِ قَهوتِي البارِدَةِ على عتباتِ كانونَ الثّاني، تورَّطتُ باللُّغة بذاتِ الحُروفِ العتيقةِ المرصودةِ من زَمنِ فكِّ الطّلاسِمِ والرّسوماتِ، تورَّطتُ بخيطِ دخانٍ رَماديٍّ الحياةِ، بأَنغامِ صَفصافٍ مَيّتِ الجذورِ، بهُيامٍ لا براءَ منهُ.

لا تنبضُ القلوبُ للأجسادِ، كُلّما مَرَّ العُمرُ واتَّضحت اللّوحةُ وبرزَتِ الأَلوانُ أيقنْتُ أَنَّي لَم أَعشَقْ قبلَكَ شيئًا، ولَم يَعبرْ مِن خِلالي أرواحٌ.

تصوُّفٌ أنتَ لَم أُعرِبْكَ إلّا بعدَ خمسةٍ وثلاثينَ عامًا، تورَّطتُ عمرًا وأنا أحاولُ الوصولَ إلى التّجلِّي، غَزوتَ تَكويني منذُ لحظةِ الخَلقِ الأوَّلِ، ورفعتَ أبراجَ حمائمكَ، وتركتَني كلَّ يومٍ أضيعُ أكثرَ، فكُنتُ بِلا عُنوانٍ.

نَعم، تورَّطتُ فكنتُ بلا عنوانٍ، ضاعَ ساعي البريدِ وهو يبحثُ عن صندوقِ منزلي وتوقيعِ الاستلامِ، ضاعَتْ كلُّ رسائلِ العمرِ، والحبِّ والغزواتِ، وأنا أقنعُ روحيَ أنَّ الإنسانَ يَعشقُ الإنسانَ، لكنّي حرفٌ يُلامسُ حَرفًا يُجرِّدُ المعنى يُزاوِجُ الورقَ والأقلامَ؛ لِيَخُطَّني أنثى فقط معَ الأقلامِ.

اللّونُ أُنثى

اللّيلكيُّ لَونُ الدَّربِ إليكِ، لونُ الفقدِ في أيّامي والعبثِ في سِربِ كلاميَ، هو طريقُ أَلَمِي هو العشقُ الميِّتُ المُمَدَّدُ فوقَ معالمِ أنوثةٍ حرّةٍ.

اللّيلكيُّ عَشيقُكِ أنتِ وعذابي أنا، تعلمينَ جيدًا أنَّني عارٍ أمامَ عُبورِهِ، وأنَّ القلبَ يَخورُ صَبابةً في تَجلِّيهِ على جسدٍ تَمرَّدَ بأرضيَ.

ماذا أُسمي الجفاءَ المُلَحَّفَ بالإغواءِ؟

هل هو عشقٌ؟ أم انتقامُ العُشّاقِ؟

هل هو كمينُ البَقاءِ؟ أم استفزازُ الرّحيلِ؟

اللّيلكيُّ وأنتِ، أنتِ فقط كلُّ الحكايةِ.

مخطئٌ من ظَنَّ أنَّ اللّونَ ذكرٌ، اللّونُ أُنثى طاغيةٌ، تستعملُ أَسوءَ أسلحةِ المُبصرينَ؛ لتغتالَ دونَ رحمةٍ، وَكيفَ ترحَمُ مَن تَسلَّحَتْ بالقهرِ لتُنازِلَ قلبًا أعزلَ؟

كيف يا عَشيقَتي ،عَدوَّتِي، قَاهرتِي وقهريَ كيفَ أقتلُ نفسيَ؟ كيفَ أغتالُ اللّيلكيَّ وهو الهُويَّة الأزليَّةُ لرجلٍ أعزلَ، افعلي ما شِئتِ، تَمرَّدي تَورَّطي، اتَّكِئي على قَهريَ واجعلي الطّعنَ أعمقَ، قُودي الانقلابَ على أرضيَ، وانثُري فوضى الجِياعِ على أرضيَ واقتلعي السَّنابلَ الخضراءَ، واردمي يَنبوعَ عمريَ وانصبِي تمثالَ استعمارِكِ وانزعِي عَلَمي، لكن لا ترتدِي اللّيلكيَّ خارجَ أرضيَ.

المُعتَقد

مُنذُ صغرِنا ونحنُ نَتعجَّبُ وَنُفَكِّرُ بعالمِ الصَّحابةِ وقصصِ المؤمنينَ نُحاورُ ذاتنا وَنُراهِنُ، هل هذهِ الشّخصياتِ حقيقةٌ أم وهمٌ؟ هل يُوجد إنسانٌ يَتَحمَّلُ حَجمَ هذا الألمِ والعذابِ؟ هل يُوجدُ بَشرٌ يَستَعذِبُ السِّياطَ وَيُسافِرُ بعيدًا بِجروحهِ وَحُروقهِ ومآقيهِ لِيُناجيَ اللّهَ؟ هل يَعلَمُ الصَّبرُ حَجمَ الصَّبرِ المَزروعِ في كَيانِهم، لطالما جَزَمتُ أنَّهم ملائكةٌ لا محال.

حتّى تَفتَّحتْ أَعينُ النَّاسِ وأَفئِدتَهم؛ لِتُؤَرِّخَ وَجعَ دمشقَ، وجرحَ بغدادَ، وأَنينَ الأقصى، ونزاعَ اليمنِ، سَجَّلنا وصَوَّرنا لكنَّ القلمَ كَسَرَ رصاصَهُ، وجَفَفَّ مِدادَهُ وَحرقَ، أَوراقَهُ أَمامكِ يا شامُ، يَجمعُ الحروفَ يَستحضرُ القوافيَ يُراجعُ الأَبجدياتِ لكن لا شيءَ... يَسقُطُ عاجِزًا يَسقُطُ عاريًا حافيًا تمامًا لا سَرجَ لهُ ولا مَعبَرَ.

في أرضكِ أَدركتُ أَنَّ الصَّحابةَ ما زالوا ماثلينَ وأَنَّ بلالًا تحتَ صخورِ الرَّدمِ يُوحِّدُ، وَأَنَّ التّهجيرَ والهجرَةَ سُنَّةُ الحبيبِ فينا، وَأَنَّ مجاعةَ قُريشٍ أَرحمُ، وأَنَّ جهلَنا من أَبي جَهلٍ أَعتقُ، وأَنَّهُ رَغمَ الموتِ والقهرِ والرَّدمِ واليُتمِ لا حَبَشةَ لنا ولا نَّجاشيًّا يَنصُرُنا .

بل كُلُّ أَرضنا أَظلمُ، منذُ صِغرنا نَعتقدُ أَنَّ عَذاباتِ المُعتَقَدِ ماتَت ولا زِلنا إلى اليومِ نَدفعُ أَكثرَ.

نُرسِلُ نحوَ السَّماءِ رسائلَ الخذلانِ، خَجَلًا نَدَّعي الحسرةَ ، نُريدُ أن نُريحَ لَسَعاتِ الضّميرِ، نُريدُ أَن نُبَرِّرَ لِحُرَّاسِ السّماواتِ

السّبعِ أّنّنا مازلنا بَشرًا مازلنا المُكرَّمينَ الّذينَ سجدتُم لأَبيهم الأَوّلِ.

وننتظرُ الرَّدَ، ننتظرُ صُكوكَ الغفرانِ نتأَملُ السَّماءَ ونحنُ نعلمُ تَمامًا أَنَنا نتأَملُ تجلّيَ اللّهِ وكلمةَ الفصلِ ومطرقةَ العدلِ الأولى أَن تَذُقَّ جِباهَ المُتخاذلينَ وأن يتَجلَّى ربِّي أمَام الجبلِ أو يَجعلهُ دَكًا.

قطعةٌ أدبيّةٌ

حاوِلْ كِتابَتي في سطورٍ تخلو من الفجواتِ، املَأْ ما تبقَّى من يَقينكَ حُروفًا خالداتٍ. أجملُ ما في الحُبِّ لُغتُهُ، كم تَمنَّيتُ أن أُعشقَ بالكلماتِ! هُنا كُلِّي يَبكي على كُلِّي، وفي السُّطورِ تَجِدُ ما عَلمتَ مِنِّي وما لَم تَعلمْ .

لا تُتعبِ النَّفسَ في التّحليلِ والنَّقدِ، فتلكَ القطعةُ الأدبيَّةُ لا عالمَ لها، لن تُحَدِّدَ جِنسَها ونَوعَها ستبقى ضَائعًا، تَجمعُ ما يُقرِّبُها للشِّعرِ وما يُبعدها عن النَّثرِ .

ستعجزُ لأنَّها بنثرِها وقافيتِها لا تعلمُ من تكونُ، يَسري بِكُرياتِ دَمِها المِدادُ، يَسقي قَلبَها بِما يَحمِلهُ على الخفقانِ، هي أُنثى فقَط مع الكلمات ، تَخيَّلْ أُنثى من ورقٍ دماءَها الكلماتُ. ما لا تأخذهُ بالكلمةِ لن يُبنَى بالثّرواتِ .

لم تُخلَقْ اللُّغةُ لتكونَ جسرَ تواصلٍ فقط، بل وُجدَت لِتقولَ ما وراءَ الحرفِ، وما خلفَ الشُعورِ، وما بعدَ الآهِ، خُلِقَتْ لتُطفىءَ جمرَ العُشاقِ وتُعبِّدَ طريقَ الزُّهادِ، وتَبذُرَ أرضَ البُور بالحبِّ بالحبورِ.

لولا الطّينُ لَسلَّمتُ أنِّي من الحُروف مُنبَثقةٌ، ومنَ السُّطورِ مُبعثةٌ ومن التِحامِ الشّفاهِ ونَأيها مُخرجَةٌ .

كُلَّما كبرتُ عشقتُ حُروفيَ أكثرَ، انفردتُ لها خليلةً أُجالسُ شهريارَ قلمًا ودفترًا، ماذا لو كُنَّا حبرًا وورقًا ؟ سنكونُ أصدقَ سنكونُ أعمقَ؛ لأنَ لُغاتِ الجسدِ سَتسكتُ سَتصمتُ سَتُبعد.

وتُقصى لُغةُ العيونِ والدُّموعِ والرَّجفةُ سَتعدَمُ، لن نُفسِّرَ المَلامحَ سنمضي في فضاءِ الكلماتِ كويكباتٍ وأجرامَ تَدور دون فلكٍ .

اكتُبني ولو مرةً، اجمعْ كُلَّ أسلحةِ البلاغةِ وانثرْ امتدادَكَ على الورقِ، أم أنَّك من مذهبِ(إنَّ الحروفَ تموتُ حينَ تُقالُ) .

نَكبرُ مع الأيامِ، نعلمُ من سَلالِمِ العُمرِ وجدرانه أنَّنا كَبرنا، نحنُ منذ البدايةِ أَدركنا الشُّعورَ كاملًا، كُنَّا نَعلمُ أنَّ حَفيفَ الأشجارِ مَسموعٌ جميلٌ يَطرقُ حَشرجاتِ القلبِ، يُوقفُ جُنونَ التّفكيرِ يُعطينا سلامًا داخليًّا لا حدَّ لهُ، لكنَّ الحفيفَ كيانٌ غير مرئيٍّ ولا ملموسٍ، يعيشُ على الإحساسِ فقط.

لم نكنْ مُترفي الشُعورِ، ولا باحِثينَ عن الوجودِ في أعينِ أحد أمضينا الوقتَ عِنادًا لا اعتيادًا .

كقطعةٍ أدبيةٍ صعبةٍ كُلّها شيفراتٌ ورموزٌ، لا تحبُّ السّهلَ محورها البحثُ والنَّقدُ، تُراقصُ ما وراءَ السّطرِ وما خلفَ الكلمةِ وما بعدَ الحرفِ .

نثريَّةٌ هي لا مَوزونةٌ مُقفاةٌ، لا بدَّ أن قَريحةَ الشِّعرِ زارَتها وشيطانُ الأطلالِ داعَبها. لكنَّها مَنثورةٌ في فضاءِ الحبِّ، كغُبارٍ سحريٍّ خرجَ من قُمْقُمِ اللُّغةِ، أُميَّ المَلامحِ مَنزوعُ الزّمنِ، يَفركُ عينيهِ يحاولُ استيعابَ الهُوّةِ الزّمنيَّة والفجوةِ الحسيَّةِ .

مجبرٌ أنتَ يا عزيزيَ الماردَ، مجبرٌ على التّرجماتِ، على قذفِ القريحةِ الأدبيَّةِ، على تحليلِ النّصوصِ، على معرفتي ومجالستي، مقارعةُ الأضدادِ في قلبي وملاطفة الجناسِ .

ورَغمَ كلِّ هذا لن أهبَكَ لُغتي، لن أُعطيكَ جَذريَ ومَصدري، سأبقى عصيَّةَ الحرفِ، شِيمتي الصَّمتُ .

لن تُحدِّدَ جِنسي الأدبيَّ ولا غرضيَ الشَّعريّ، أنا لا أعلَمُني لا أدركُ ماهيتي، أنا أنتَ إن فَهمتَني حَفظتَنِي، بَعثتني روحًا ، بَعثرتَني جسدًا.

ملكةٌ هي من كانتْ أمَّ الحرفِ، من احتوَت في رَحِمِ لُغتِها صَرفَ الكلامِ ونحوهِ، أمُّ النَّساءِ تكونُ من ذاب نُطقها ومَنطِقها في ضادِنا.

الهالةُ

لم أفهمْ يومًا جمالَ ورونقَ هالةِ الوحدةِ، كنتُ أتسأَلُ كيفَ يَعشقُ ويهيمُ ويبحرُ الأدباءُ وحدَهُم؟ كيف تَتَنزَّلُ الرّسالاتُ السَّماويةُ على الأنبياءِ وحدَهم؟ لا يُشارِكهُم اللحظةَ أحدٌ، وكيف تُلَّحِنُ الطّبيعةُ أنغامَها من غيرِ أنْ تستعينَ بقوافي الشِّعرِ كُلِّها؟

نأتي ونَندَثرُ بينَ ذراتِ التّرابِ وحدَنا، تلكَ الوحدةُ غريبةٌ عظيمةٌ تَخلقُ الرُّقيَ والاندماجَ الكونِيَّ بأجزائكَ، تتوحَّدُ أرواحُ الخَلقِ فيكَ لتُبخِّرَ منكَ التّفاهةَ والدُّنيَويَّةَ، تَضَعُكَ من جديدٍ في عمقِ التّغيِّرِ؛ لتعلِنَ عندَ مخاضِكَ مِيلادَ فكرٍ جديدٍ، ويا الله كم بِتنا بحاجةٍ لخَلقِ أفكارٍ وعلوٍّ روحيٍّ أكثر بكثيرٍ من الأجسادِ البَاليةِ، الّتي تأتي للكونِ؛ لتزيدَ من أعدادِ العابثينَ فِكريًّا.

عقمُ العقولِ كدَّسَ في الأسواقِ بضاعاتٍ شتَّى مُنتهيَةَ الصّلاحيَّةِ تزيدُ كَسادَ دَربِنا، وتلكَ الوحدةُ تَنزَعُ منك قُشورَ العبَثِ الفكريِّ دونَ مقابلٍ، تُنتِجُ الصَّفاءَ والعطاءَ.

الآن عرفتُ، لماذا نزلَ الوحيُ على نبيِّ الأمَّةِ بعدَ إبحارٍ عميقٍ في وحدةِ الغارِ؟ ولماذا استقرَّ عيسى برحمِ مريمَ وهي عاكفةٌ في مِحرابِ وحدَتِها؟ ولماذا اكتَشفَ نيوتن قانونُ الجاذبيَّةِ أثناءَ تفكيرِهِ وحيدًا بتفاحة؟ لم تُخلَقْ معجزةٌ إلا مِن عُمقِ الصَّمت، فالصَّخبُ رفيقُ المجونِ دائمًا.

لذلكَ تَنفَّسْ صَمتَكَ الذّائبَ، عِطركَ البارِدَ، تَنفَّسْ كلَّ شيءٍ ماتَ فيكَ وغادركَ تاركًا الزَّهرَ والعَبقَ والحلمَ، تَنفَّسْ موتَك وبقايا فرحةِ الماضي، لا تسألْ: أينَ هُم؟ ومن أنا؟ تلكَ الأنا دُثِّرَتْ وحيدةً بثوبِ الرَّمادِ، ما عادَ الزَّمانُ زمانُنا ولا عُدنا

ننتمي لهُ، صَمتُكَ البليغُ دائمًا هوَ الرَّدُّ على أقنعةٍ تَحملُ ألفَ طَيفٍ، ألفَ شَكلٍ ولونٍ.

تَزمَّلْ صَمتَكَ، فكُلّ ما يُحيطكَ سرابٌ، جرِّبْ السّقوطَ مرةً؛ لِترى كم رُوحًا تَلحَقُكَ إلى القاعِ أو تَمدُّ يَدها لكَ..

أنا حواءُ

هذهِ الرّوحُ تَشتاقُ لذاتِها، هذهِ الرُّوح لِنفسها تَشتاقُ، ومَضَتْ وكأنَّما أَعجَبها الفِراقُ.

هذه الرُّوح لَم تنحنِي للهدوءِ المُميتِ المُلتفِّ بأكفانِ الحياةِ، هذهِ الرُّوحُ تَذبلُ تُطفِئُ شَمعتَها وتَمسحُ آخرَ الدَّمعاتِ، تَعتَزِلُ الحُبَّ والحروفَ وتَمتَطي رَكبَ الأمواتِ، مسكينةٌ مُتعبةٌ مُرهقةٌ مُرهفةٌ تلكَ الأُنثى الصَّارِخةُ الباذِخةُ بكلِّ ما هوَ مَفقودٌ، تلكَ الّتي تأبَى التّكرارَ تأبَى العِناقَ مع البردِ مع الثّلجِ مع الجدرانِ.

حُدودُ حُبِّها الفضاءُ، وآخرُ مائِها بحرٌ بلا قاعٍ، وآخرُ نبضِها نَزعُ الرُّوحِ، وطريقُها الليل، بنتُ القمرِ فكرًا لا جمالًا، ذلكَ القمرُ الّذي يَأبَى أن يُكرِّرَ صورةً واحدةً، يَلبِسُ كُلَّ الجمالِ مُكتمِلًا كبدرٍ، مُنتصِفًا كهلالٍ، مُحاقًا كَحدَّادٍ، يُجافي الملَلَ يراقصُ العابرَ والشّريدَ.

كم هي مُتعبةٌ روحيَ! كم هي مُرهقة نفسيَ! لو أنَّها تكونُ كأيِّ أحدٍ، لو أنّها تَسكتُ تَنصِتُ تَرضى، لو تَقبِضُ بكفها على شموعِ الرّوح وتَغرِسُ لحمَها بلهبِ الأملِ، تَقتلُ تُجهِضُ تُنهي النّبضَ؛ لنعودَ وأعودَ وتعودَ لا شيءَ معنا إلا أعمار.

هذهِ الرّوحُ تشتاقُ، هذهِ الرُّوح لكَ تشتاقُ، تعشقُ هدرَ العمرِ عِنادًا وكبرياءً، تَهوى قِممَ الفضاءِ، مَجبولةٌ بماءِ الرّجلِ، طَواعيَةً مجبولةٌ لا كرهًا ولا إجبارًا، لكن تحتَ غطاءِ حضنِها الدّافِئِ الّذي لا يَفتَحُ بابَهُ لبردٍ قطُّ، ويُغلقُ بوجهكَ كُلّ أبوابِ الدّفءِ إن كنتَ فأسًا، يقطعُ جذورًا مُمتدَّةً إلى أُمِّنا حَواءُ .

تلكَ الوليدةُ، تلكَ الشّريدةُ، تلكَ العَتيدةُ حواءُ، كيف أقطِفها؟

كيفَ أَنثرُ بِذارَ قلبي في أرضِها، في حِضنها، في نواةِ الحَياةِ النَّاشِئَةِ فيها، كم أنتِ بعيدةٌ!

أنا الأرضُ مولايَ، أنا التّرابُ الّذي تَنشَقُّ منهُ الغابات والكون فكنْ لي مُزارِعًا مُخلِصًا، أكنْ لكَ كُلَّ الحُقولِ كُلَّ الثّمارِ والينابيعِ المُتفجِّرَةِ والأنهارِ.

وإلّا لنْ أهبَ الحياةَ لبندقيةٍ، لمخرَزٍ يُدمي أرَقَّ القلوبِ، لن أهبكَ إلا الحُطَامَ، سيدي ومولاي لن أهبَكَ إلّا الحُطامَ.

سُفُنِي القديمةُ الّتي تَنَصَّبْتَ مِرساتَها وكنتَ أنتَ القبطانَ، أَحرقتُها سيدي، وتَركتُ الرَّمادَ شهيدًا على الشُّطآنِ، أنا مرساةُ نفسي أنا البحرُ أنا الدَّفَّةُ، والأشرِعةُ، والحيتانُ.

نزعتُ خلفكَ بُوصلَتي وألقيْتُ تَعويذَتِي خَلفِي، وَكرَّسْتُ لكَ أجملَ المراسِمَ، حتَّى بَكَتكَ الأمواجُ والطّيورُ المُهاجِرةُ الباحِثةُ عن قَضمةِ خُبزٍ مُبلَّلٍ تُقدمُها يَدُ سائحٍ غَارقٍ بجمالِ بحرِ مَرمَرة.

وداعًا سيِّدي يا مَنْ تتجرَّعُ الوجودَ مِن زجاجةِ عطرٍ طاغي الأُنوثةِ لا ترضَى إلا بالسِّيادةِ، وَسيدانِ لا يجتمعانِ.

كَمْ لَبِثنا؟

رُبّما تَطرقُ أبوابَنا أيّامٌ غريبةٌ، وتحيا بينَ أسرَتِنا وأغطِيَتنا وأحلامِنا متاهاتٌ لا نعرِفُ لها عدًّا ولا حصرًا، نَغرقُ في غياهبِ المجهولِ وأمواجِ الضّياعِ، لعلّنا نَنسجُ غدًا بعونِ اللهِ وقدرتهِ مَراكبَ أقوى وأشرعةً صَبورةً تحمِلُ عَرَقَ الجباهِ والأيادي الّتي ودَّعتْ حياتَها اليوميَّةَ.

لم نتوقعْ قبلَ يَومنا احتمالاتِ الظَّلامِ الّتي نَحياها الآنَ، لمْ يخطرْ لنا أنَّ لِطَرقِ أبوابِ الصُّفوفِ الدّراسيَّةِ وأصواتِ المعلِّمينَ الشّارِحةِ الغاضِبةِ المُنبِّهةِ الضَّاحكةِ، وأَقدامِ الطُّلابِ المتزاحمةِ خلفَ كرةِ القدمِ، وزَواميرِ السّياراتِ، وزحمةِ الأسواقِ وعتباتِ المساجدِ وأخذيةِ المُصَلّينَ المُتراكمةِ على البواباتِ يومَ الجمعةِ، وهلالَ رمضانَ الباكي الّذي أمسحُ دمعَهُ، وأشعرُ بيديَّ تُدثِّرُ صلواتِهِ، لم نتوقعْ أنَّ لكلِّ هذا وذاكَ روحًا وعبقًا وحبًّا، يُكلِّلُ أيامَنا.

كيفَ يُمكِنُ لمَحاربنا أن ترفضَنا هكذا؟ لم يسبقْ لبيوتِ اللهِ كافةً أن تقذِفَنا كُلَّنا جُملةً وتَفصيلًا، كيفَ لها أن تُلقيَ بالكُلِّ خارجًا؟ كيفَ لهذا أن يَحدُثَ؟

يُعاقَبُ هذا المَخلوقُ البَشريُّ وحدَهُ، ووَحدَهُ فقط يُنفى، أَكُنَّا حقًا مُزعِجين لهذا الحدِّ؟

هل كانَ العالَمُ بِكُلِّ مكوناتِهِ يَحتاجُ راحةً مِنَّا، أم أنَّ بروفاتِ الوداعِ الأخيرِ لهذهِ الأرضِ قد بدأَتْ.

صَرخَ الكونُ رافضًا لنا! الحياةُ، العملُ ،الرّوحُ، الوقتُ المُكتنِزِ شَغفًا، هل يا ترى هذهِ أشياءٌ تُشتَرى؟ لا نعلمُ مِقدارَ

الضّريبةِ الّتي سَتُقدّمها البَشريَّةُ تَكفيرًا عن السّواد الأعظمِ الّذي غرسَتهُ بهذا الكونِ.

وكم سَنَستَغفِرُ ونَتَذَلَّلُ لِربٍّ ما فَتِئنا نَعصيهِ! لا بُدَّ مِن صَحوَةٍ، من عَودَةٍ، من قَطراتِ ماءٍ طاهرٍ زَمزَمٍ تُلقَى على وُجوهِنا، تَغسلُ حالَنا وَعَارَنا.

يا اللهُ، إنَّ للبيتِ رَبًّا يَحميهِ، وإنَّ للطَّوافِ أرواحًا تَرجو عَفوَكَ ورحمتَكَ، يا ربّ، إنْ لَفظْتَنا فَمَن لَنا، ياربّ، أنتَ واحدٌ أحدٌ وليسَ للفاني مَدَد إلا الرّبّ السّند.

يا ربّ، نَحتاجُ رَمَضانَك، أَرواحُنا مُنهَكةٌ تَشتاقُ لِتراويحَ تَجمعُ أجسادَنا بعدَ هذا الشَّتاتِ، نَشتاقُ لِكعبَتِكَ وإنْ لم نكنْ أَهلًا لها فأنتَ الأهلُ والصَّاحِبُ، نَتوقُ لتكبيراتِ العيدِ ومُصافحَة الجارِ بعدَ سَجداتِ الصَّباح الأولى، نَحِنُّ لأَرحامِنا مَا قَطعنا منها وما وَصلنا، يا ربّ، نحنُ أُمةُ محمد -صلّى عليهِ اللهُ والأرضُ والسَّماءُ والكونُ وسلَّم- أمّةُ الحبيبِ ليسَ لها حبيبٌ غيرَك.

أيحقُّ لنا الرّجاءُ؟ اللهُ أعلمُ.

كمْ لبِثنا بالتّحطيمِ والتّشويهِ ؟

قَطَعْنا على الأشجارِ حَفيفَها وتَسبيحَها لربٍّ كريم، خَلَطنا ذراتِ الهواءِ النَّقيَّةِ المُنعشةِ سُمومًا لا حصرَ لها، لعِبْنا أدوارَ القتلِ كافةً على كُلِّ مَخلوقاتِ اللهِ، لم نتركْ بَشرًا ولا شَجرًا ولا حَجرًا ولا روحًا إلا شوَّهنا مَعالمِها، كُلُّ دماءِ المَوتى الّتي ذُرِفَتْ وهي تُصارع آلةَ القتلِ فينا، كُلّ بكاءٍ جائعٍ مُنهكٍ، كُلّ تَلاعُبٍ بخلقِ اللهِ وسنتهِ، وكُلُّ عِرضٍ هَتكنَاهُ يَقفُ اليومَ ناظرًا ساخرًا من جبروتٍ حُطِّمَ ووقفَ عاجزًا، من شيءٍ لا يُرى،

مُجرّدَ (فيروس) لا يُفهَمُ لا يُقاسُ بِسيفٍ ولا رُمحٍ ولا بارودٍ ولا مِدفَعٍ.

كَمْ وكَمْ لبِثنا! بِمكرِنا بِفكرِنا بِقُبحِنا، كم لبثنَا؟ اللهُ أَعلمُ.

الآن فلنَصمتْ وننتظرْ لَمسةَ اللهِ الرَّحيمةِ تَرحمُ زُورَنا وتزويرَنا، اللَّهم فَرَجًا وفرحًا نرجوهُ مِنكَ.

(أمَّةٌ مكلَّلةٌ بالذّنوبِ)

٢٠٢٠/٤/١٥

الجَسدُ المُهجَّرُ

سَرتِ الرّوح سافرتْ كفارسٍ مُحَمَّلٍ بسيوفِ الفتحِ العُمَريِّ، هُنا على شرفَةِ شاشَتي تَأمَّلتُ تَألَّقَ الذَّهبُ في حِضنِ جبالِ القبلةِ الأولى، كأنّنا هنا كبرنَا وعِشنَا وصُلِبْنا على حوافِ الجبالِ نحرسُ دمعَ الحرمانِ، هنا تَكَحَّلنا بحاراتِ الزَّعترِ والزّعفرانِ، هنا تُنادي كعكاتُ القدسِ المصلِّينَ على رصيفِ المدينةِ.

نُسكِتُ المعِداتِ الخاويةِ، نَزوِّرُ باللّقمةِ، عندَ رؤيةِ القُبَّعاتِ السّوداءِ الحالكةِ ذاتِ السّوالفِ الطّويلةِ الدّخيلةِ الّتي تَسلبُنا الطّرقاتِ، نقفُ بينَ الشَّبعِ والجوعِ نَغَصُّ رغمَ خشوعِ فَجرِنا وانعكاسِ الشّروقِ على قُبَتِنا .

رغمَ رائحةِ الزّيتونِ والزّيتِ وكعكِ القُدسِ المُحَمَّرِ، نَغصُّ أَلَمًا ولا زِلنا منذُ خمسةٍ و سبعينَ عامًا نحاولُ رَشفَ ماءٍ طَبَرِيا؛ لِنَهرُبَ من الغَصَّةِ ولا نهربُ، بل نَغصُّ أكثرَ.

تَسَرَّبْنا من بينِ يديِّ الزّمانِ وسقطنَا بعنفِ ارتطامِ المجراتِ في ساحاتِ اليُتمِ والتَّهجيرِ أكثرَ.

محسوبونَ على الأرضِ العتيقةِ، على عيسى والقيامةِ والمسرى ولم نطأَها إلا بالأحلامِ والشّاشاتِ والخُرافةِ .

نسمعُ رجالَ ونساءَ الزّمنِ الغابرِ، يَهذونَ عندَ سكراتِ الموتِ بخرافاتٍ ووصفٍ وتنهيدٍ لم نرَهُ بقدرِ ما لَسعتنا حُرقةُ الجمالِ فيهِ.

نسمعُهم يُودِّعونَ التَّهجيرَ قبلَ الحياةِ يهذونَ بذكرياتِ الأرضِ والبياراتِ والحقولِ والقبلةِ الأولى، ينادونَ الشّهداءَ

يستحضِرونَ دروبَ الأرضِ المرصوفةِ بحجارةِ القدسِ العتيقةِ، يستدعونَ الخريطةَ يُذكِّرونَنا بأنَّهم كانوا هُناكَ ويُخاطبونَ عزرائيل ويعاتبونَهُ.

هُنالكَ وُلِدنا فلماذا أَتيتَ بالنِّهاياتِ هُنا؟ لماذا يا ملكَ الموتِ تقسُو النّهاياتُ كما قَستِ البِداياتُ ؟

زيتونَتي وقبريَ ومهدُ ميلاديَ، كُلُّها تنادي تَعتَبُ على الموتِ كما تَعتَبُ على الحياةِ، سرَتِ الرّوح ويا لَيتها أضاعتِ الطّريقَ ولم تسكنْ الجسدَ المُهجَّرَ.

المَزيد

عندَما تتزاحَمُ المِحنُ والمَشقَّاتُ وتَتَلاحقُ المصائبُ والصّدماتُ وبعدَ مراحلِ الصَّدمةِ وركودِ العِراكِ يتحوَّلُ الإنسانُ، إمَّا زاهِدًا تارِكًا كلَّ زيفٍ ومالٍ وسلطةٍ وبهرجاتٍ وأَحبَّاءَ.

فاقِدًا أشرِعَةَ العُمرِ ومُسلِّمًا المرساةَ إلى دَفَّةِ القدَرِ بيقينٍ واقتناعٍ وهدوءٍ وعشقٍ، لِما تبقَّى من سنواتِ واعتزالٍ لكلِّ نفاقٍ ومالٍ وتُرَّهاتٍ، أو يتحوَّلُ إلى وحشٍ مَمحوقِ المَعالِمِ مَمسوخِ المبادِئ يزدادُ لهاثًا وجريًا واستحواذًا، لكلِّ مَعالِمِ الدُّنيا ومظاهرِ القوة وجبروتِ الحياةِ.

لا يَشبَعُ ولا يَقنعُ ولا يَقفُ لإحساسٍ أو دمعةٍ أو أنينٍ، يصرخُ جامعًا بحنجرتِهِ غُرورَ الأرضِ ومُحصيًا متاعَ الحياةِ، يصبحُ جحيمَ الأرضِ بذاتِهِ، مُعتقدًا أنَّه بهذهِ الفَرعنةِ سيجمعُ أنقاضَهُ ورفاتَهُ وَيجلي انكسارَهُ، وهل يُعالَجُ الانكِسارُ بالانشِطارِ؟

كلَّما أَلقتِ الدّنيا بجوفهِ الأطماعَ وسألتهُ هل امتلأتَ؟ يكابرُ ويجحَرُها بكلِّ وقاحةٍ وهَمجيَّةٍ، ويقولُ: هل مِن مزيدٍ؟ هل من مزيدٍ؟ هل من مزيدٍ؟

تقولُ: بلى، وتَركِلُ في جوفهِ كلَّ ما في جُعبَتها من مالٍ وعزٍّ وسلطةٍ وجاهٍ وجبروتٍ، حتّى يَختنِقَ اختناقًا مُذِلًّا يُحاوِلُ التَّنفّسَ التَّشبّثَ التَّفَلُّتَ، لكن بعدَ فواتِ الأوانِ، تضحَكُ الدُّنيا مُحتقِرةً بَشاعةِ النّهايةِ، وتقولُ: خُذْ، فما عادَ لكَ المزيدُ.

الغريبُ

الصّعبُ أَنْ تَلفظكَ دُنياكَ وتُنكِرُكَ دِماؤُكَ وتَرفضكَ أَسماؤكَ، وَتُلقيكَ الحياةُ شريدًا طَريدًا بعيدًا عن عُقرِ كَونكَ.

الصّعبُ أن تُسجَنَ على أملِ الاحتواءِ؛ لتحيا على الرَّصيفِ مُبعَدًا عنهُم كأَنَّكَ عيبٌ، مسخٌ، تشويهٌ لامسَ خطوطَ الشَّرفِ، كم هي صعبةٌ وغَصَّةٌ، أن تكونَ مُجرَّدَ شَوكةٍ في حلقِ أهلكَ وأبناءِ جلدَتكَ، والسَّببُ اختلافكَ عَنهم، رَفضكَ أنْ تُطابقَ شَكلَهم.

عندَما يَهرُبُ الجميعُ منكَ حتَّى رفاتُ أَبيكَ، لأَنَّكَ تَكوَّنتَ في رَحمٍ غريبةٍ عن مُستوى الحبِّ، عن مستوى الطّبقات الّتي نَسجَتَها، مجتمعاتٌ (لا فرق بين عربيٍّ أو عجميٍّ فيها إلا بالتَّقوى) .

ما هذا التَّناقضُ؟ ما هذا النِّزاعُ المُميتُ بينَ ما نَعتَنِقُ وما نصنعُ؟ كأنَّ العقيدةَ رِداءٌ أو رايةٌ تُحْمَلُ مُؤقتًا حسبَما يَقتضيهِ الهوى والمجتمعُ.

كم نحنُ مُزيَّفونَ! مُنحَلُّونَ عن أَصلِنا ودينِنا وذاتِنا.

لا بأسَ عليكُم فربَّما الاختلافُ ثَمرةٌ لا تُقطَفُ إلا برحابٍ غريبةٍ.

فصحراءُ العُروبةِ تَأبَى الاختلافَ، تُلقيهِ بعيدًا عن حرارتِها الحارقَةِ، ساقُ البامبو تموتُ لدينا، تحتاجُ تربَةً طريَّةً تَحِنُّ عليها.

عمَّانُ

كم هي جميلةٌ أنوارُ المَنازلِ والشّرفاتِ والشّوارعِ! كم هي ساحرةٌ في ليلةٍ صيفيَّةٍ بارِدةٍ تَحمِلُ عَبَقَ السَّماءِ! تلكَ المُدنُ عارِيةُ المُمتلكاتِ والنَّفائسِ وخزائنِ الأثوابِ السُّندسيَّةِ الخضراءِ، تلكَ المُدن فقيرةُ الخَريرِ والحَفيفِ والهديلِ، تملكُ ألفَ ضوءٍ وحكايةٍ وروايةٍ، تُشعِلُ أنوارَها بدايةَ كُلِّ مساءٍ بِشموعٍ أَزليَّةٍ ، تَعزِفُ سمفونيَةَ الحياةِ وَتراتيلَ المَسيحِ وأَصداءَ المَحاربِ وَأَرواحَ أَهلِها.

تلكَ المساءاتُ عريقةٌ بفقرِها، بمصابيحِ الأملِ، تُقَبِّلُ المُنهَكينَ، تَستحضِرُ صُراخَ مُصارعي الرُّومانِ على مُدَرّجاتِها، تنسجُ لأهلِها أبسطَ معاني الدّفءِ تُهديهِ مَكسوًا بكسرَةِ الأيَّامِ.

(تلكَ عمَّانُ)

عمَّانُ الّتي تُنجِبُ كلَّ يومٍ مِصباحًا ونورًا، يُطلِقُ العنانَ لهمومِ أَهلِها ويُسدَلُ السِّتارُ علَى آخرِ ليالي الحبِّ، تلكَ عمَّان تُهدي الضّياء في ليالي جبالِها السّبع للغريبِ قبلَ القريبِ.

تلكَ الوَلّادةُ الّتي ما انفكّت تَهبُ الرُّوحَ روحًا والشَتات بيوتًا وجدرانًا، تلكَ عمَّانُ المَظلومةُ مِن قسوةِ مَن عبروا على رؤوسِها والجباهِ.

عَرِفتها صدِّقيني عرِفتها "وعرِفت نشأةَ أُمَّةٍ جُبِلَتْ على شرفٍ فَطابتْ مَضرَبًا".

هي روحُ مُدنٍ وأحياءَ وطوائفَ وأصولٍ وأعراقٍ تَآلفتْ؛ لتنسجَ من عمَّانَ كَنزةً صُوفيَّةَ حَميميَّةً.

كلُّ خَيطٍ فيها لونٌ وقصةٌ ومَنبتٌ وأصلٌ، كأنَّ نَشأتَها الأولى كانتْ مَقرَّ حياةٍ أَصرَّ أن يكونَ مُختلفًا عن العالمِ رُبّما؛ لتُجبَلَ على ما هي عليه الآنَ.

تُصرُّ أن تُثبتَ للعالمِ أنها حِضنٌ لكلِّ شَريدٍ وطَريدٍ، حَضَنتْ الفَلاحَ الفلسطينيَّ وحاملَ الشّهادَةِ والبَدويَّ الّذي قرَّرَ الاستقرارَ وعافَ الرّحيلَ؛ ليُحيكَ خيوطَهُ في هذا النَّسيجِ، والنُّوريّ الّذي انتمى لشيءٍ ما أخيرًا، والصُّوفيَّ الّذي راقصَ مغاراتِها وكُهوفِها.

تلكَ عمَّانُ ومازالتْ تُذِيبُ الأصولَ وتُعطي الأمنَ لكلِّ مَسلوبٍ مَنهوبٍ، تلكَ عمَّان الّتي أَتمنَّى أن تبقَى حِضنًا يُدَثِّرُ يُتمَنا، فلا تنزعُوا رداءَ أَمنِها ولا تَنكثُوا غَزلها أَنكاثًا.

حِكمةُ البُعدِ

نحياها مرةً واحدةً نتنفَّسُها مرةً واحدةً، نَدخلُها ضُيوفًا، علامَ العَتبُ والتَّعبُ والتَّحليلُ؟ كُلُّنا ضيوفٌ، نَحمِلُ أمتعةَ البقاءِ المُؤقت نرى فيها كُلّ الأصنافِ والألوانِ، ننغرُّ ونُخدَعُ مرةً ونستيقظُ مراتٍ ومراتٍ، نُحِبُّ ما لا يُعشَقُ ونَتعلَّقُ بالزّوالِ، نكافحُ دِفاعًا عن أخطاءَ عديدةٍ؛ لنستيقظَ على جُرمٍ بحجمِ غبائِنا، لكنَّ المَحظوظَ فينا من يستيقظُ .

عندما تَنطَلقُ بالكونِ بعيدًا، تُشاهدُ المَشهدَ من عُلوٍّ وارتفاعٍ، تبدو الأمورُ والأحداثُ والأشخاصُ أصغرَ بكثيرٍ أصغرَ ممَّا كُنتَ تتخيَّلُ أو تَظنُّ، تستوعِبُ حجمَ تَقَزُّم المجرياتِ وتفاهةِ المَراحلِ الّتي خُضتَها، تعلمُ كَم كُنتَ سَاذجًا وتَضحكُ كثيرًا على ذاتِكَ .

كُلَّما زادَ حَجمُ العُلوِّ، زادَ الإدراكُ وزادَ استصغارُ الفوضى الّتي أَحطتَ نفسكَ بها، مِثلَ جِرذٍ عَالقٍ بمصيدةِ عَجوزٍ شَمطاءَ تَرعى الخُرافة والشَّعوَذةَ والسّحرَ .

يا لَها من لَوحةٍ غَريبةٍ كُنتَ فيها دائمًا مَرسومًا وغير مَرسوم، كُنتَ خَيطًا صوفيًّا رَماديَّ اللونِ، تُسَاقُ من أوَّلِ حَرفٍ إلى التّوقيعِ، أرادَ اللهُ لِحكمةٍ ما لسببٍ لن تَعلمَهُ الآن أن ينتَزِعكَ انتزاعًا مِن كلِّ التَّفاصيلِ يُلقيكَ بعيدًا حتّى عن ذراتِ الهواءِ المُشتركةِ، وضعكَ في هواءٍ جديدٍ يدخلُ جهازكَ التّنفسيَّ، يُنظِّفُ الغُبارَ العالقَ والأتربةَ يُعَلِّمكَ فنَّ الشَّهيقِ والزّفيرِ، يُطِيلُ أنفاسكَ يُدرِّبكَ على الصُّمودِ على الغَوصِ دون خَوفٍ على قَطْعِ الهواء متى شئتَ، والتَّنفُّسَ بعمقٍ مُوغلِ المدى عندَ العشقِ.

مُحِقٌّ من خافَ وهابَ الإدراكَ، مُرعَبُ الفهمِ والاستيعابِ أعلمُ الآن أنَّ الجهلَ راحةٌ ونومٌ عميقٌ والإدراكُ شقاءٌ .

ويعلمُ الخَيطُ الصُّوفيُّ هذا حجمَ الصَّمتِ، قِيمةَ السُّكوتِ ثمنَ الحرفِ، كَبِرَ الخيطُ الصُّوفيّ كثيرًا وتعلّمَ تَقديسَ التَّخلّي.

التَّخلّي عن الحَواسِ فهو أعمى عن تفاهةِ المسرحيةِ المُمثَّلةِ وما كانت تَألفهُ العينُ سابقًا، وهو أصمٌ عن لُغاتِ الكونِ لا يسمعُ بعدَ الإدراكِ إلا صوتَ عقلِهِ ،حوارَهُ الدَّاخليَّ، منولوجَ روحهِ الّتي تُمارسُ الحياةَ بعيدًا وبعيدًا عن كلِّ ما مضى.

تذكُّر

كَم كانَتْ رائعةً جميلةً حيويَّةً! كم كانَتْ تَنبِضُ بالحياةِ والدِّفءِ تَتدفَّقُ تَجديدًا وتغيِّرًا ...

كم بِتنَا نحتاجُ لموتٍ أَبديٍّ أزليٍّ! قَبرٍ يُحيطُ الغاليَ قبلَ الرّخيصِ كلّ هذا الثّمنِ الباهظِ فقَط؛ لِنُدرِكَ كم كانَت حَياتُنا مليئةً بكلِّ شيءٍ فائضةً بكلِّ حبٍّ! هكذا نحنُ جُبِلنَا على الفقدِ والضّياعِ؛ لندرِكَ بَعدَهُ مُرَّ الحرمانِ ونفهمَ المعادلةَ بعدَ حَلّها ولنتنعَّمَ بكلمةٍ لو.

بعدَ سُقوطِ آخرِ ذراتِ التّرابِ عليهم، سنفهمُ تمامًا المفقودَ الغالي الّذي كانَ مُباحًا لكلِّ ثواني عُمرِنا، ولكن هيهاتَ هيهاتَ بعدَها أنْ تَنعَمَ إلا بالحسرةِ والغَصّةِ، عندها عزيزي راقِصْ الصّمتَ، وتنَّعَمْ ببحرِ السّكونِ، وداعِبْ أهدابَ الليلِ، عندها سَيُهدى لكَ الحُبُّ بارِدًا والشّموعُ مُطفَأةً والقلوبُ مُغلقةً، حتّى لُعَبُنا ستحدّثكَ عن الموتِ وتَحفِرَ اندثارَكَ قبلَ أَوانِهِ.

مؤمنةٌ أنا حدَّ الثّمالةِ أنَّ الدّفءَ لا يُكرّرُ لا يُعادُ، حتّى لو شاركَتْكَ كُلُّ بَناتِ الهوى هَواكَ، إيَّاكُم واغتنامَ الحبِّ إيّاكم والشَّبعَ من الحياةِ، ابقَوا على صَمتِكم، ولنبقَى خارجَ الحياةِ، لن تُدركَ صدِّقنِي إلا بعدَ فواتِ الأوانِ.

لُطْفُ اللهِ

لا بدَّ من الارتقاءِ والنُّهوضِ، سَلالمُ العُمرِ تَدفعُكَ للمُضيِّ للتحوِّلِ لخلعِ كُلِّ ما كُنتَ عليه دائمًا، وبَتْرِ كُلِّ ما فاتَ ولا بُدَّ في العُلوِّ من مَخاضٍ، لن تَأتيَ لكَ الورود وَحدَها ، بل لن تَنقشَ اسمكَ في هذا الكونِ لمجرّدِ أنَّكَ ثابتٌ بلا حِراكٍ تُعانقُ مَكانكَ.

حتّى لو كانَ المَخاضُ مُؤلمًا، فتلكَ سُنَّةُ الكونِ تَتألّمُ لتتعلَّمَ فتعلوَ، وما يريحُ النَّفسَ تلكَ الأقدارُ الّتي يَسوقُها اللهُ، واللهُ وحدَهُ فقط يَسوقها يُكبّلُكَ بها، لا لتقعَ، بل ليُنجدكَ دائمًا، أتعلَمُ لماذا؟ لأنَّكَ دائمُ الابتهالِ لهُ، دائمُ التَّذلّلِ على أَعتابهِ، دائمُ الاستخارةِ، فما أَلمُكَ إلا أَملٌ صنَعَهُ صانِعُ الكونِ الأوَّلِ.

ما أجملَ التّدابيرَ الّتي تَستَسلمُ لها! والكونُ ينظرُ لكَ بإحباطٍ إلا قَلبكَ العامرَ به وبقضائِهِ، ينظرُ يتأملُ يَصمِتُ كثيرًا ويَرضى.

تَقسُو أيّامُنا؛ لنسموَ ويكمنُ مَنبعُ السُّمو في يَقينِنا المُطلَقِ بهِ، وبكلِّ ما نحملُهُ مِن عَطاءٍ وإخلاصٍ جُبلنَا بهِ وجُبِلَ بِنا، نحنُ هنا لِنكونَ غدًا في شُرفاتٍ عاليةٍ ننظرُ لما فاتَ من ذكرياتٍ ، ونأخذُ من هواءِ الخالقِ تنهيدةً غارفةً بالحمدِ غارقةً بالصّمتِ، أمامَ لحظةِ تَشبُّثِنا نحنُ بالألمِ بينَما غَدُنَا يصنعُ الأملَ.

في كلِّ خَيارٍ مَسؤوليةٌ وفي كلِّ قدرٍ راحةٌ واندماجٌ، سَنُجذِّفُ نحوَ قَدَرِ اللهِ وننعَمَ بِمسارِ القدر كما نعمنا بالصَّمتِ.

هَشّةٌ أَنا

كم هُو يَتيمٌ هذا الجمالُ! كم هو وَحيدٌ حَدَّ التَّلاشي، حَدَّ الأرقِ حَدَّ الغَرقِ! هذهِ الأصواتُ تُناديكَ تُناجيكَ تَشتَهي نَظرَاتِكَ الضَّائِعةِ البَاحثةِ عن الكُلِّ فينا.

توقَّعْتُ أَنّي قادرةٌ قويّةٌ مُفعَمةٌ بالطُّموحِ والأملِ مُتحديّةٌ للصَّعبِ الّذي لا يهونُ، لم أعلمْ أبدًا أنَّ مِحورَ القوةِ أنتَ، وأنَّ إِصراريَ على تَحدّي الحياةِ كانَ بفضلِكَ أنتَ، أنَّ الأمانَ مِن بعدِ اللهِ أنتَ.

صدِّقنِي صديقَ الدَّربِ، أنا هَشَّةٌ جِدًا، هَشَّةٌ حَدَّ التّماهي في حدودكَ وأرضِكَ، هَشَّةٌ حَدَّ العَومِ على سَطحِ بَحرٍ هائجٍ يُراقصُ عذراءَهُ في ليلَتِها الأخيرةِ، لا أنا أَصِلُ الشَّواطئَ ولا أغرَقُ.

هَشَّةٌ دُونكَ صَدِّقنِي، تلكَ الأنفاسُ القديمةُ كُنتُ أظنُّ أنَّ الرّئتينِ مصدرُها، لكن بِبُعدِكَ الرِّئةُ تَختنقُ ،فقدَتْ الإحساسَ بالنَّفسِ، بالشَّهيقِ العميقِ الخارجِ من عَتمةِ الشُّعورِ، والزَّفيرِ الّذي يُخرِجُ هُمومَ الدُّنيا من الأجسادِ.

تُعاتِبني الشَّواطِئُ والرِّمالُ، مصدومَةٌ هيَ، لم تَعهدِ الوحدةَ رفيقةً لي ولا شاهدَتْ يَدِي فارغةً من أنامِلكَ.

تُعاتبنِي الدّنيا والشّعورُ، تاهَتْ من بعدِكَ الأمورُ، القلبُ يَتخبَّطُ قَلِقًا، لا يَحظى بِغفوَةٍ هادئةٍ تَمسحُ أَرقَ البُعدِ، أو تدعمُ هشاشة الرّوحِ.

يَسكُنُنِي الهدوءُ

الأرواحُ هدَأت سَلَّمَتِ الدَّفةَ والشِّراعَ تنازَلتْ عَن كلِّ ما كانَ بل ربَّما تنازلتْ عن كلِّ ما سيكونُ.

هل هذا هو السَّلامُ الدّاخليُّ

هل هذا هو التَصالحُ مع الذّاتِ؟

يَسكُنهُ الهُدوءُ قلبيَ، لا مَوجَ يَعلونا ولا زَبدَ يُغطِّينا، ينظرُ من بعيدٍ إلى القريبِ فَقَط ينظرُ، لا يأملُ شيئًا ولا يَخافُ.

هناكَ طُرقٌ في الحياةِ نَعبرُها، وطُرقٌ أُخرى تَعبُرنا، ودروبٌ نَحيكُ منها سُترةَ الشّتاءِ، لتُرمِّمَ بردَ عظامِنا.

هناكَ أشخاصٌ يدعَمونَ خُطامَنا، يرفعونَ كَسرَ خَوفِنا، يُجذِّفونَ بِنا بعيدًا وبعيدًا جدًا عن النِّفاق.

هذهِ الوُجوهُ تُلامسُ قلبَكَ ضعفكَ، تَنظرُ إليها تُحدِّقُ بها، هل جاءتْ إليَّ رحمةً منَ السَّماءِ، أمْ دَعوةً من أحدٍ ذَكرَ اسمي لربِّ السَّماءِ؟ أمْ ماذا؟

رُبّما لم أصنعْ بحياتيَ معروفًا لِأُجازَى هذهِ القلوبَ، ورُبَّما عبرُونا لنَعبرَ معهُم إلى اللهِ.

هناكَ أشخاصٌ كَسرُوا فيكَ الثّقةَ، زَرعُوا الخوفَ بالعيونِ جعلُوا الحذرَ شعارَ حياتِكَ، نَقضُوا عهدَ الخُبزِ والأيّامِ يا الله، ما أصعبَ هذا العهدَ! لو عَلِمَ الجاهلُ ثمنَ الأيامِ لما تابعَ دربَ حياتِهِ مُتنفِّسًا، ضاحكًا كاذبًا على روحِهِ والحياةِ.

وهناكَ أيَّامٌ تُداوينا وأيَّامٌ نُداويها، وكُلّنا لا نعلَمُ منِ المريضُ؟ وأين الشّفاء؟

وهناكَ أرضٌ بمرارِها تَسكُنُ فينا وتَرفضُ الرّحيلَ تَرفضُ الشَّيخوخةَ والهرمَ، تُصرُّ على الحُضورِ رَغمَ الرَّحيلِ.

وأرضٌ نتنفَّسُ العشقَ من تُرابِها ومائِها، منْ نَسماتِ صباحِها البارِدِ والمُحمَّلِ بالنَّدى، منْ دوربِ زَوارقِها وشُقوقِ شَمسِها المُرتديةِ غيومَ اللهِ .

والّتي تَختبئُ خلفَ رجالِ السَّماءِ، هؤلاءِ الرّجالِ الّذينَ يَرفضونَ الفِراقَ ولا يَملّونَ عِناقَ أشعَّتِها.

وهناكَ أرواحٌ حاضِرةٌ بشَهيقِها وزَفيرِها رَغمَ الغيابِ، أرواحٌ ما اعتَدْنا البُعدَ عَنها ولا اعتدْنا الفِراقَ.

هُناكَ عَذاباتٌ تُذاقُ ، تَلمسُها الرُّوحُ والشِّفاهُ، أتعلمُ متى؟ عندما تَرى الجَمالَ والبَهجةَ والحياةَ، عندما تَستنشقُ اسيقاظَ البحرِ بعدَ ليلةِ عِشقٍ صَاخبةِ الذّكرى، عندما تُلامسُ ألوانَ الورودِ، وتَمشي طرقاتٍ جديدةٍ فريدةٍ، عندما تَفرحُ وتنظرُ إلى الجانبِ الّذي كُنتَ مسنودًا على كتفيهِ؛ لتجدْهُ الآنَ فراغًا، فتُدركَ حرقةَ العَذاباتِ الّتي لم تَذقْها سابقًا.

وهُناك بالزّاويةِ المُعتمَةِ المُضيئةِ أجلسُ أنا، أرقبُ المشهدَ من بعيدٍ، ولا أعلمُ إن كُنتُ أنا حقًّا أم مُجردَ خَيالٍ.

عُمقُ الشّعورِ

نفشلُ عندما نَضعُ أحدًا فوقَ الكُلِّ وفوقَ الخطَأ والزَّللِ، دائمًا نفشلُ عندما نَنهَجُ نفسَ الفِكرِ والفكرَةِ، وهذا ليسَ سوءَ تقديرٍ أو غباءٍ أو سذاجةٍ، بَل هوَ حبٌّ وحبٌّ كبيرٌ، يَدفعُنا دائمًا لتجاهلِ أيّ فكرةٍ تدلُّ على العكسِ، والابتعادِ عن أيّ لحظةٍ يُحاوِلُ عقلُنا فيها طَرحَ الأسئلةِ.

أتعلمُ لماذا؟

لأنَّنا نُحبُّ ، نتعلَّقُ بالفطرةِ الّتي لا يُخالِطها شَكٌّ أو ريبٌ، نُصدِّقُ قلوبَنا ونبرِّرُ الشّعورَ، ونزرعُ الفَجواتِ أملًا ببقاءِ هذهِ الرُّوحِ في عَتباتِ الأوائلِ.

ثُمَّ نفشلُ وكلّما كَبرنا تَزدادُ خَيباتُنا ويزدادُ الفشلُ، ودائمًا سيدُ الموقفِ هو إيمانُكَ بالآخَرِ.

لأنَّكَ وبِبساطةٍ تَكرَهُ طَرحَ الأسئلةِ، تَكرهُ التَدخُّلَ والاستفسارَ، تكرهُ التَّحليلَ، ترى الأمورَ كَما تَجري أَمامكَ، لا تُفكِّرُ بأبعادٍ أُخرى، تَسمعُ الحِكايةَ كَما تُنطَقُ مُؤمِنًا بالشِّفاهِ الّتي تَنطِقها قبلَ أن تؤمنَ بالمَنطِقِ.

هكذا أشعُرُ وأُمارسُ الحياةَ وهكذا تُؤخَذُ الأمورُ، لكن دائِمًا يكونُ للقدرِ تَدخُّلاتٌ وتحليلاتٌ تَجعَلكَ تعودُ خائِبًا إلى مربَّعِ الصِّفرِ.

ورغم كلِّ شيءٍ سأبقى أحبُّ مُتعامِيًا عن الشُّكوكِ، سأبقى مَدهوشَةً مَأسورَةً بكلِّ روحٍ أَهبُها مَعزَّتي.

لن أغوصَ في تَلوثاتِ التَّحليلِ والتَّفكيرِ والتَّكذيبِ، سأُبقي الغاليَ غاليًا إلى أنْ يُسقِطَ نَفسَهُ عنوةً، وأُبقي الصَّديقَ صَديقًا إلى أن يَنهارَ مُهترِئًا.

التّفكيرُ بالخللِ تعبٌ، والبُعدُ عن الّذي أبدَلَكَ بالغالي غنيمةٌ.

الإنسانُ بحدِّ ذاتهِ يعلمُ كُلَّ شيءٍ، ويكذِبُ على نفسِهِ، يعلمُ الصَّادِقَ من رَمشِ عينِهِ ويُكابِرُ حُبًّا، يُكابرُ رفضًا لسقوطِ أرواحٍ شَاطرَها كلَّ شيءٍ.

الإنسانُ مُعجِزةٌ لأنَّهُ يَشعرُ يَحِسُّ يُدرِكُ ما لا يُدركُ، يُدرك هذهِ العينِ متى تَنبِضُ؟ ومتى تَعشقُ؟ ومتى تَكذبُ؟ ومتى تَرحلُ؟ حتَّى لو كانَتْ أمامَك بدمعِها وبريقِها تُدرِكُ أنَّها تَكذِبُ وترحلُ زاعِمةً الحُضورَ.

سأبقى أُصَدِّقُ ..... سأبقى مُغمَضةَ العينِ ....

لِأَنَّي سأكونُ الأَصدَق.... سأَكونُ الأعمقَ....

حَفنةٌ من النّساءِ

تَذكَّرْ قبلَ الالتفاتِ أنَّ هذهِ الرّوحَ تَبتَهِلُ للهِ ليلًا ونهارًا، مَجبولةٌ هي فيكَ، تَذكَّرْ أنَّ الاندثارَ أهونُ ألفَ مرةٍ عَليها من طَيفِ خَيالٍ يحومُ حَولَكَ، تذكَّرْ أنَّ خلجاتِ رَوحِها مَسكوبةٌ مِنكَ وفيكَ، وأنَّها مِن غيرِ أنْ تَدعوَ سَتسقطُ السَّماءُ قهرًا، تذكَّرْ أنَّك كنتَ غَريبًا عَنها تَحيا وحدَكَ، وهي تَنسجُ أجملَ عالمٍ منَ العلمِ والبراءَةِ والحبِّ والمشاكساتِ، بل هي مَلكةُ المشاكساتِ بلا منازعٍ.

كانَتْ تُصلِحُ ما يَتلَفُ؛ تُصلِحُ أفكارًا وقلوبًا وصديقاتٍ أَتعبَهُنَّ الدَّهرُ، كانتْ مُخلِصةً لكلِّ قَديمٍ مُتمسِّكةً بكلِّ جديدٍ، تَحومُ من زهرةٍ إلى زهرةٍ، تُصاحِبُ هنا وتَزورُ هناكَ؟، تَسمعُ هذا وتُواسي هؤلاءِ، لم تُؤسَرْ يومًا، بل كانتْ روحًا عاشقةً حتَّى وإن لم يُقنِعْها العشقُ قبلكَ، كانَت آلةً لا تُضيُّعُ ثانيةً هباءً بلا حياةٍ وحركةٍ. إلى أنْ جِئتَ أنتَ أخذتَ كُلَّ شيءٍ الوقتَ والفِكرَ، الأصدقاءَ والحُريةَ والحُبَّ، اليومَ والغدَ والأمسَ، لم تُبقِ شيئًا لها.

سَكتَتْ واستسلمَتْ لرياحِكَ ثُمَّ تَعايشَتْ مع مُلكِكَ ومَلكوتِكَ وسلطَتِكَ، ثُمَّ عَشِقَتْ ذلكَ المُلك وأغلقَتْ الأبوابَ عليكَ، تذكَّرْ أنَّكَ الآنَ كُلَّ شيءٍ، لم يَعدْ لها أرضٌ ولا وطنٌ ولا حتَّى أجنحةٌ للتحليقِ، كُلّ العوالمِ الّتي عَاشَتها قَبلكَ رُكامٌ، فلا تُعِدها إلى بقايَا الحياةِ المَنسيّةِ.

تعلمُ (هيَ وأنتَ) أنّها رَغمَ تَعلُّقها وحُبِّها وجنونِها وما تُقدِّمُ وتَأخذُ وتُقيمُ وتَهدمُ، تَعلمُ عِلمَ اليَقينِ أنَّ هذا سيزولُ تمامًا عندما تَلتَفِتُ أنتَ عنها.

لن تُناضِلَ ولن تُحاربَ ولن تَستعيدكَ أبدًا، بل سَتحرِقُ خَلفَكَ مراكِبها؛ لكي تَغرقَ وتَموتَ قبلَ أن تُرجِعْكَ مرةً أُخرى.

مَجبولةٌ على العَنجَهيَّةِ، لا تُقنِعُها تَخاريفُ الجدَّاتِ.

بَيتُكِ أَولادكِ أَسوارُ حَياتكِ، هي أُضحوكةٌ أو نُكتةٌ تُلقيها أرضًا عند رَحيلكَ أوعندَ وَضعِها على كفَّةِ الميزانِ مع أحدٍ .

تَذكَّرْ تذَكَّرْ، أنَّكَ الحياةُ، وأنَّها حُرةٌ تَملكُ الكُلّ أو تُحرِقُ الكُلَّ، لا أنصافَ لديها ولا أقسامَ كانت في حياتها يومًا، كانتْ ومازالتْ كُلًّا.

هي حَفنةٌ من نِساءِ الشَّرقِ، تلكَ الّتي جافَتْ عُيونها العوائقَ، تلكَ الّتي تَهِبُ للشَّمسِ عُنفوانَها وللأرضِ ثَباتَها، وللحريَّةِ انطلاقَها.

هي مُجمَلُ النِّساءِ تَجرّعتِ الأيَّامَ؛ لِتُنجِبَ لِكلّ مَنْ كَسَر ضِلعًا لها، جِسرًا من حنانٍ وعطاءٍ إنْ تَفرَّدَتْ بقلبِكَ.

هذهِ هي الأنثى بِجميعِ اللّغاتِ واللّهجاتِ والأصولِ، زَوقُ أملٍ في خِضمِّ الخوفِ والضَّياعِ .

كنْ قُوتكَ

قوةٌ، أَجلْ قوةُ تلكَ الّتي تُمَكِّنكَ من الرَّحيلِ في أَغلى لحظاتِ اللّقاءِ، قوةٌ تَجعلكَ تَضحكُ بِكُلِّ ثَناياكَ في أَقسى لحظاتِ الحُزنِ، قوةٌ تُثَبِّتُ أَركانكَ في أَعتَى الزّلازِلِ، قوةٌ تَنثُرُ السّلامَ تُنيرُ الشّموعَ، تَرسمُ طَيفَ ضِحكةٍ وصمتٍ وشرودٍ في أكثرِ أيامكَ انهيارًا، وتُرَسِّخُ فيها ثِقتكَ بذاتِكَ وكيانِكَ في وجهِ أكبرِ المُتعالينَ على البسمةِ.

نَعَم، نحتاجُ قوةً تَهدِمُ كُلَّ ما كانَ ، وتُعيدُكَ صَلبًا جامدًا باسمًا واثقًا أَمامَ الحياةِ ومَن فيها، قوةً تُخرِجُ أجودَ ما عندَكَ، كُلَّما قَهرتكَ حِياكةُ الظَّلامِ المُلتفِّ حولكَ، أَثمِرْ غُصنَ زيتونٍ يُباركُ ليلكَ ويَحمي روحكَ من النُّفوسِ المحيطةِ.

لو قامتْ ساعَتُكَ وبِيدكَ عطاءٌ قَدِّمْ، فما أجملَ بسمتكَ في حياةٍ تُصرُّ على ذِكرِكَ رَغمَ الرَّحيلِ! أُحبُّ بِنفسي - وقلَّما أحبَبتُ بِها شيئًا- الاستسلامَ للبذلِ كُلَّما سرقتِ الحياةُ مني جزءًا.

فلتكنْ لِنفسكَ كُلَّ الحُبِّ المَحفورِ في الدّنيا، والنَبضَ الّذي توقَّفَ عنِ الخفقانِ، كُنْ لها عبقًا سحرًا خالدًا يَتَلَقَّفُ يُسرَ أيّامِها وعسرَها، كُنْ أنتَ دائمًا لا تُرهِقْ ذاتكَ بالألوانِ لأنَّكَ وبالنَّهايةِ لنْ تَرسمَ إلا ذاتكَ، كُنْ هيَ منِ البدايةِ واخلعْ عَنكَ ألوانَهم، لن تُزهِرَ إلا من جُذورِكَ وجذوركَ فقَط، فكُنْ لنفسِكَ كُلَّ الحياةِ.

عام ٢٠٢٢

مَرَّ هذا العامُ الجميلُ بِصُعوبتهِ، الجميلُ رَغمَ تَعبهِ الغَريبُ رَغمَ سَهرهِهِ وأَرَقِهِ، هذا العام الّذي يَحمِلُ معانيَ العَطاءِ بِكُلِّ أنواعِهِ وأشكالِهِ، البعدِ بِنكهاتِهِ، القربِ بحلاوتِهِ.

شكرًا للهِ والحمدُ لهُ قبلَ كلِّ شيءٍ، الحمدُ للهِ الّذي أَخرجَ منِّي ما لم أَعلمْهُ وأشعرْهُ يومًا، الحمدُ للهِ الّذي شقَّ نورًا من عُمقي يُعلِّمُني من خِلالهِ كم أنا قويَّةٌ! كم أنا صلبةٌ!

كلُّ الّذي أحياهُ يُقنعنِي بحجمِ القوَّةِ المدفونةِ، بحجمِ العطاءِ المخزونِ، بحجمِ النَّبضِ الّذي يُحيطُ أُسرَتي مِني.

هذا العامُ كانَ غريبًا عجيبًا يَحمِلُ ما أتمنّى، مُعلَّقَ الإحساسِ فارغًا من أجملِ يَدٍ رافقَتْ دَربِيَ، رُبَّما لحكمةٍ ما أرادَ اللهُ أن أستمرَّ رَغمَ البُعدِ.

كانَ البُعدُ جميلًا ، كانَ تجديدًا للحُبِّ وإعلانًا لخطوبةٍ مُكرَّرةٍ مع نفسِ الرُّوحِ .

هذا العامُ مهمٌّ النِّهايةِ، كانَ مُميَّزًا بِعنفوانِهِ بالهدوءِ والجديدِ الّذي غَطّى أطرافَهُ، هذا العامُ يَختلفُ عن الكلِّ يُعلِنُ ميلادَ شخصيَ الجديدَ.

مُلِيءَ بِذاتيَ، بإنجازاتيَ، بذراتيَ الخاصةِ الّتي جَعتلني أُقدِّمُ الحُبَّ أكثرَ وأمتعَ وأقوَى.

هذا العامُ جعلَني أعلمُ مُكنوناتَ أطفاليَ، براءةَ القلوبِ النَّابضةِ ، حفاوةَ الأناملِ النَّاعمةِ، وقوةَ الدَّعمِ منهُم، كم هو جميلٌ أن تَأتيكَ الدّفعةُ نحوَ الأمامِ من يدِ طفلٍ!

أحمدُ اللهَ أَنِّي عِشتُهُ وعايشتُهُ؛ لأنَّهُ غيَّرَ أولوياتِي وغربلَ الثَّوانيَ والسّاعاتِ، عَلَّمنِي كيف يكونُ الجمالُ آسرًا مع منْ نُحبُّ؟ وكيف يكونُ صامِتًا حزينًا دونَهم؟

أشكرُ اللهَ على الأيّامِ والثَّواني واللحظاتِ والزَّوايا والأماكنِ وكلِّ ما كانَ وكلِّ ما سَيكونُ.

بُنِيَتُ القوَّةُ داخلي قبلَ أن أَبنِي مُستقبلًا، شعرتُ كم هي قويّةٌ الأُنثى!

وكم كانَ هذا العامُ مُميَّزًا! سأحفرهُ بالذَّاكرةِ، ونتكلَّمُ أنا وأولاديَ عنهُ كثيرًا، سنضحكُ كثيرًا على جُنوني، ونَبقى نَذكُرُ كَم كانَ البُعدُ مُرًّا بحجمِ اللّذةِ! لم أعلمْ أنَّ بعضَ العذابِ جميلٌ، أنَّ طعمَ الشَّوقِ رائعٌ.

الكلامُ يَقفُ صامتًا أمامَ عاميَ هذا، أشكرُ اللهَ على كلِّ ما مضى، وأحمدُهُ على ما فاتَ، وأتمنَّى أن يكونَ القادِمُ أجملَ، ما دامَ من ربِّي فهوَ الأجملُ بالتّأكيدِ.

مساؤُكُم فوضَى شعورٍ عارمٍ بالعبثِ.

الرَّماديُّ

هو إنسانٌ لا يُصنَّفُ، ليسَ لهُ مَكانٌ مُحدَّدٌ ليسَ له هُوِيَّةٌ راسخةٌ، راياتُهُ مُتعدِّدَةٌ معَ المظلومِ ينثرُ حمائِمَ السَّلامِ، ومَراهِمَ الجروحِ لطيفُ المَعشَرِ، ومع الظَّالمِ قِطٌّ ساكنٌ تَحتارُ بِهِ ولا تعلَمُ أيَّ لونٍ يرتَدِي .

أنتَ مَن ؟

هل كُنتَ حقًا الرَّوحَ المفضَّلةَ لِقلبي؟

هل أنتَ خيرٌ وطُهرٌ أم أنتَ رأسٌ مُنحنٍ ومصالحٌ ؟

هل تلكَ المبادِئُ المُتسرِّبةُ من شفاهِكَ لك؟

أم أنتَ حروفٌ وملامِحٌ أُخرى؟ الجمالُ يا عزيزيَ يَأتي دائمًا مع ثقةِ الثَّوابتِ، تخيَّلْ مَعي جمالَ البحرِ والشّاطِئِ في أَوجِّ إشراقاتِ الصَّباحِ تخيَّلْ مَعي روعةَ الغُيوم الحُبلى بأمطارِ الإلهِ، تخيَّلْ روحَ الحرفِ بينَ يديِّ كاتبٍ باعَ روحَهُ ثمنًا للحقِّ لكلمَةِ صِدقٍ.

تخيَّلْ و تخيَّلْ جمالَ الجبالِ وعظمَتِها تَنْطِقُ شموخًا؛ لأنَّها واضحةٌ بَل واضحةٌ جِدًا تَرفُضُ الاختباءَ خَلفَ أيِّ شيءٍ ترفضُ أن تنحَنيَ، لا الرِّيحُ تَهزُّها ولا الإعصارُ يُعنِيها هيَ هيَ .

الرّماديُّ يا عزيزيَ مسكينٌ، لا هوَ نجمٌ مُبجَّلٌ ولا هُوَ نمرودٌ يُهابُ لَن يكونَ أبدًا أبيضًا ولنْ يُصاحبَ الثّلوجَ في نقائِها، ولن يطغَى سوادًا؛ ليُخيفَ العدوَّ قبلَ الصَّديقِ، ويَفرِضَ كونَهُ على الجميعِ بكلِّ قوةٍ .

الرَّماديُّ يا عزيزيَ مُجرَّدُ ظلٍّ خَفاشٍ، يَخافُ النُّورَ، يكبرُ في كُهوفِ الظَّلامِ، وَيَختارُ فوقَ ضياعِ هُويتِهِ وانعدامِ انتمائِهِ خفاءَ الكُهوفِ مَقرًا لَهُ .

طيفُ التَّعصبِ

عندَما تُصِرُّ جذورُ الغالي على الانحدارِ أكثرَ والانغماسِ في تُرَبٍ أعمَقَ، وأنتَ تُراقبُ وترى المَشهدَ من بعيدٍ، تَنطِقُ تَتكلَّمُ تحاوِلُ بحُبٍّ تقديمَ اليدِ مِن عُمقِكَ؛ لنشلِ الجُذورِ لمساعَدتِها لتوفيرِ طاقتِها المهدورَةِ طَوالَ أعوامٍ لترحمَها من مقارَعةِ صُخورٍ صَمَّاءَ لا يَنغَرِسُ فيها أملٌ ولا يَدخُلُها خيرٌ.

تبقى بِجَلَدِكَ مُحاوِلًا مُنازِعًا مُخالفًا لَها، على أملِ أن تَبحثَ الجذورُ عن تربةٍ أَحنَّ أَطرى قَلبًا وأكثرَ عطاءً، تَستَميتُ بالدِّفاعِ وهيَ تُصرُّ على الهجومِ والاندفاعِ .

حتَّى تقفَ بُرهةً منَ الزّمنِ، تَسرَحُ فيها بعيدًا، تنامُ متأمِّلًا ما قد مضى، تضحكُ على ذاتِكَ قبلَ الجميعِ.

تَكتشفُ أنَّها لم تُقنعْ أحدًا، لا القريبُ ولا الحبيبُ ولا البعيدُ، كُلّهم ونحنُ سواءٌ، نسعى للتنظيرِ والتمثيلِ، تَمثيلِ المِثاليَّةِ والقوَّةِ والرّأيِّ السّديدِ والفكرِ السَّعيدِ، لا أحدَ في عصرِنا مهما كانَ حكيمًا يحاوِلُ ولو مرةً سماعَ صوتٍ إلا صوت ذاتِهِ .

هو الأعظمُ هو الأقوَى هو الامتيازُ هو الإنجازُ وما دونه سرابٌ، والحقيقةُ الحتميَّةُ القدريَّةُ الجدليَّةُ الوحيدةُ أنَّنا جميعًا سرابٌ. وكلَّما زادَ وتضخَّمَ شُعورِكَ بالأَنا، كُلَّما زادَ اضمحلالُ جذورِكَ أكثرَ نحوَ قاعٍ لا قرارَ ولا خيرَ فيهِ .

حاوِلْ مرةً أن تسمعَ صوتًا يَخرُجُ من أوتارِ سِواكَ، حاوِلْ مَرةً أن تُكمِّمَ عنجهيَّةَ عقلِكَ؛ لتفتَحَ الطّريقَ لعقولٍ وتجاربَ وحروفٍ أخرى.

من أنتَ ؟ ومن نحنُ؟ مجموعةُ تجاربٍ لا أكثرَ ولا أقلَّ .

تخيَّلْ أنَّ فرعونَ بجبروتِهِ ورَغمَ إصرارِهِ على الكُفرِ، طلبَ السَّحرةَ لِخوضَ تَجربةٍ مع موسى- عليهِ السَّلام- وخوضِ معركةٍ يُثبِتُ فيها الصَّحيحَ رأيَهُ والخاطِئَ خطأهُ.

من أنتَ عزيزيَ ؟ كي تَحمِلَ كلَّ وقارِ حطامِكَ وتحكمَ على الجميعِ بالفشلِ ورأيكَ العَليُّ.

هذا تمامًا ما يجبُ الانسحابُ منهُ، السَّلامُ عليهِ والتّسليمُ .

ابتعدْ رِغمَ الحُبِّ، ابتعدْ رغمَ الصُّورِ؛ لأنَّ الوجودَ والكلامَ يحملُ مشقَّةً لا فائدةَ مِنها.

بل إنَّ التّواجدَ يُعطِي هالةً سلبيَّةً تزيدُ الأمورَ تعقيدًا، بحيثُ يبرِّرُ الفاشلُ فشلَهُ من خلالِها، والغاضِبُ صَوتَهُ، والنَّرجِسيُّ فكرَهُ، ابتعدْ ليس لتعبكَ ولا ليأسِكَ ولكن؛ ليجدَ النّرجسيُّ مركِبًا آخرَ يُلقي عليهِ شباكهُ الفارغةَ، وحظوظَهُ السّيِّئةَ، ودروبَهُ الوعرَةَ، تكفيكَ ذاتكَ لتحملَ خيباتِها، حتَّى تحمِلَ مُعتقداتٍ وتخاريفَ لَن تَخلِقَ شيئًا ما يومًا ما .

أَنَا

لأجلِ بياضِ نَصِّكِ أَهبُ المِدادَ نَصِّيَ، أهبُ الورقَ امتداديَ ومائِيَ وأنا الأعلمُ أنَّكِ للماءِ أشوقَ، ولالتِحامِ العبيرِ بالتّعبيرِ عِشقٌ لديكَ، ولا عِشقٌ لديَّ يُعبدُ.

لأجلِ أَثوابكِ العَرائِسيَّةِ البيضاءِ، أهبُ الثَّغرَ نصرًا وتمهيدًا وشعرًا.

فأنا اليتمُ المُتيَّمُ بالحرفِ
كلماتُ الكونِ لي ولا كونَ لديَّ
أبعثُ بالحروفِ أنفاسًا
فتمضي من دونِي كأَنَّني
الجاحدُ وهي الوفيّ
وأَعودُ لعُرفِ الحُبِّ
كاتِبًا وِشاحَ الدَّربِ
مُدرِكًا معكَ أنَّي معي
ولا شيءَ مِنكَ يعودُ
يومًا إليَّ.

هُنا القدسُ

منذُ مُدةٍ طويلةٍ فَقدنا الإحساسَ، التّضامنَ، الدّمعةَ الحُرَّةَ الحارقة من قهرِ الأعوامِ والسّنينِ، منذُ أعوامٍ مَضتْ ودماءٍ نَدَّتْ وجباهٍ سَقطتْ ولَم تسقُطْ فَقدنا الإحساسَ.

حتَّى عندَ ذكرِ فلسطينَ لم نعدْ ننبضُ أو نشعرُ، هَرمنا من سَلبِ الشُّعورِ، من كَثرةِ الدِّماءِ والشُّهداءِ والعروبةِ المُفَخَّخةِ، لم نعدْ نشعرُ، لم نعدْ نُجفِّفُ دمعًا ولا دماءً، نسيرُ كما الأعمَى الأصمِّ الأخرسِ.

اعتقدْنا هذا منذُ مُدةٍ لا يَعلمُها إلا اللهُ، لتأتيَ الآنَ أنتِ يا حبيبةَ الشّاشاتِ الصَّغيرةِ، يا رفيقةَ دربِ الدَّمِ، يا أصليةً في زمنٍ ليسَ فيهِ أصلٌ، يا حُرَّةً على طريقِ "محمدِ درة" يا عُمقَ الآهِ فينا، أتيتِ لِتُحيي اليومَ القهرَ الميّتَ فينا، الدَّمعَ الأحمرَ فينا، الألمَ الأقبحَ فينا، الذّلَّ الأعوَرَ فينا.

تَعازِينا لكلِّ شَريط إخباريٍّ لَستِ فيهِ وفينا، تَعازِينا لدمعٍ انفجرَ وفَجَّرَ ذُلَّ صوتِنا وأَخمدَ صوتكِ .

صَوتكِ الّذي قارعَ بُندقيَّةَ المُحتلِّ، قاتلَ صَمتَنا ، جابَهَ دَمعَ الأُمَّهاتِ بصبرٍ وأمانةٍ ،صوتكِ الآنَ نامَ، أخذَ آخرَ غَفوةٍ وتَرَجَّلَ عن صَهوةِ الرُّجولةِ والثَّباتِ، تَرَجَّلَ وتَركَ صَمتَنا ورَأسنا مُنحنيًا إلى أخفضِ بُقعةٍ في الأرضِ، تَرَجَّلي عزيزتِي ارحلِي بوَقارِ الشُّهداءِ.

شهداءُ القدسِ اشتاقوا لصوتِكِ لحروفكِ لنظرةِ الثّباتِ في شاشتِكِ، اشتَاقوا لكِ فَلبِّي النِّداءَ، لمثلكِ تُرفَعُ الأقلامُ وتَجفُّ الصُّحفُ وتَخرسُ الحروفُ وتُحبَسُ الدَّمعةُ .

من سينقلُ الحدثَ؟

من سَيُغَطّي نَبَأ الشَّهيدةِ؟

من سيحمِلُ الصَّوتَ لنا؟

من سيوافينا بالتّفاصيلِ؟

شيرينُ أثقَلتِ على مَن بعدَكِ حجمَ الأمانةِ المَتروكةِ، أثقلتِ قُلوبَنا قهرًا، كلُّ المنازلِ تواري جُثمانكِ الطَّاهِرِ، وكُلُّ نساءِ القُدسِ تَنثرُ الياسمينَ خَلفكِ، ورجالُ القُدسِ يسابقُونَ الدَّهرَ لحملِ جثمانكِ المجاهدِ المُتعبِ من اعتلاءِ المَنابرِ، والسّماءُ تَزفُّ عروسَ اليومِ لموقعِها الإخباريِّ الأخيرِ، سبحانَ من سوَّاكِ وطرَّزَ بدايةَ النِّهايةِ فيكِ.

يا ربِّ، اجعلْ هذا الصَّوتَ بدايةَ فَتحٍ جديدٍ، اجعلْ هذا الدَّمَ رصاصةَ الرَّحمةِ على جُثةِ العَدوِّ.

وداعًا شيرينُ، كُنتِ الخبرَ كُنتِ المنبَرَ كُنتِ الكلمةَ كُنتِ الحَقَّ والحقيقةَ، كُنتِ طفولةَ كُلِّ فلسطينيٍّ على شاشتِك الصّغيرةِ الكبيرةِ ، وأنتِ الآنَ رسالةُ المنابرِ، أَبَتِ الحُرَّةُ أن تَرحلَ إلّا بدرسٍ صَحَفيٍّ لا يُنسى .

رافقتكِ دَعواتُنا ودُموعُنا وكفاحُ الأوطانِ .

بِنتُ أَبيها

إنْ لم تكنْ جَبلًا لا تحاوِلْ الصُّعودَ، لا تحاوِلْ الارتفاعَ أكثرَ؛ لأنَّ حجمَ الهواءِ ونَوعَهُ ونقاءَ ذَراتِهِ لنْ تَتَحمَّلهُ ، لنْ يتحمَّلَ صَدرُكَ العاري منَ الجنونِ الخالي من الدَّهشةِ نوعَ الأنفاسِ ولا حجمَها، سيَختَنقُ شهيقُكَ، ويكابدُ الزَّفيرُ وتنقطعُ أنفاسُ الجمالِ . .

نحنُ يا عزيزيَ أمَّةٌ تَأبى الجَمالَ، ترفضُ التَّحوّلَ نحوَ القمَمِ، تَسعى للثباتِ وإثباتِ الذَّاتِ، مَنْ مِنّا أشدُّ ثباتًا؟ مَنْ مِنّا يُوَرِّثُ كُلَّ مَوروثٍ؟ ولا أعلمُ لماذا نُصِرُّ على أن مدى رؤيتِنا هو الصَّحيحُ؟

تكمنُ الإجابةُ بالمعرفةِ كُلَّما عرفتَ أكثرَ وعاصرتَ وعاشرتَ وتَعلمتَ وفارقتَ وتَعبتَ وحاربتَ وكابرتَ وبنيتَ وهدمتَ، ازدادَ حَجمُ الرّؤيةِ واتسعَ مجالُ الإدراكِ.

المعادلةُ طرديَّةٌ كُلَّما زادَ الإدراكُ زادَ التَّعبُ والإحباطُ زادَ البُعدُ عن كلِّ ما فاتَ، وزادتْ صُعوبةُ العودةِ ومرارةُ الانحدارِ.

أحيانًا ألومُ نفسي.. يا اللهُ، كَم هي مُرهِقةٌ! كم هي عنيدةٌ مُتحدِّيةٌ مستمرةُ التَّكوّنِ والتّكوينِ! لا تملُّ من البداياتِ الصَّعبةِ الشَّاقةِ، كم أتعبتَنِي هذهِ النَّفسُ! لا تهدأُ لا تَملُّ لا تنامُ .

تفكِّرُ تَسعى تَرحلُ تَسرحُ تَبتعدُ تقتربُ، لا تقنعُ بالهدوءِ عَدوّها اللَّدودُ الرَّاحةُ، مشكِلةُ حياتِها الاستسلامُ للواقعِ، كم تكرهُ الواقعَ!

ومع كلِّ مَشقَّةٍ تَسعى للأشقى، رهيبةٌ نفسي لم تَتركْ صفةً واحدةً لم تتشَرَّبْها من والدها، تُصرُّ أن تكونَ هو بلا منازعٍ، والأدهى أنَّها أنثى.

مسكينٌ هذا الجسدُ عقلُ رَجُلٍ وجَسدُ أنثى، مُكوناتٌ أَثقَلَتْ كاهِلي أتعبَتْ سُفني العنيدةُ، لا راحةَ أبدًا لجسدِ أُنثى بموروثِ رجلٍ.

الاستسلامُ عندَنا يا أبي هو الموتُ، بينما نُعاصرُ في دروبِنا المُستسلِمينَ، تركيبةٌ صعبةٌ لا يعلمُ سِرَّها إلا اللهُ .

الأوتادُ يا أبي صَلبةٌ، تحمِلُ جبالًا لا تنازِعُها أنفاسٌ ولا مرتفعاتٌ لكنَّها تنازعُ صمتَ ما يحيطُها من مُحبِّينَ مُكبَّلينَ بالأثقالِ، فشلَتْ دائمًا بانتزاعِهم معها والهروبِ بهم، راضيةٌ هي حتَّى بِحملِهم في قلبِها وفوقَ أكتافِها إلى آخرِ الأصقاعِ، لكنَّهم مُكبَّلونَ، جُبِلُوا على القيودِ لا أرضَ اللهِ أرضُهم ولا سماءَ اللهِ تُعنيهم .

جِبالُنا مهما عَلتْ لن تُصفِّقَ بيدٍ، لن تَطرِبَ بلحنٍ، لن تصعدَ بقدمٍ، لن تعيشَ بنصفِ روحٍ .

الاكتفاءُ

هوَ أنْ تَنبِضَ وتتنفَّسَ وتُغمِضَ القلبَ بعمقٍ كبيرٍ بِحُبٍّ خَفيٍّ، هو الرُّوحُ الّتي تُبقيْكَ سعيدًا مُعانقًا النّجومَ راضيًا تمامًا عن كلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ واللاشيء ، هو التّرَفُّعُ عن الحزن عن الكونِ عن الشُّعورِ بوجودِ البشرِ هو الاكتفاءُ .

هو أنا بِكلِّ ما تَحمِلهُ الحروفُ من حدودٍ، هو الفرحُ مُطلِقًا للضِّحكةِ أثوابَ الغيومِ، هو انعزالٌ واتِّحادٌ مع طبيعةِ الإلهِ مع أنهارِ السّماءِ وأشجارِ الحُبِّ وأرواحِ الطُّيورِ، لم تُخلَقْ الطَّبيعةُ عبثًا ، حملتْ للعاشقينَ حِضنًا وللحالِمينَ أملًا وللمجانينَ صخبًا .

الاكتفاءُ يا عزيزيَ أنْ تكونَ محورُ سعادتكَ مُراقصَةُ الغيومِ، ومداعبةُ الأوراقِ المُصفرَّةِ الّتي تُحاوِلُ أنْ ترسمَ آخرَ لوحةِ جمالٍ في حياتِها قبلَ الرَّحيلِ الأخيرِ قبلَ السُّقوطِ .

الاكتفاءُ أن لا أعلمَ عن النَّاس إلا أَسماءَ وعناوين، أن أدَعَ المَخلوقَ للخالقِ أن أنسى نفسيَ تمامًا وأنا أسرَحُ بِملكِ اللهِ .

الاكتفاءُ هو الرِّضا بِما أنتَ عليهِ والتَّمتُّعُ المُطلقُ بالقليلِ، هو أن تحمدَ اللهَ كأنَّكَ مَلكتَ مُلكَ سليمانَ، ولا تَلتفتَ لِما في أيدي النَّاسِ، هو التَّطبيقُ لا التَّنظيرُ، هو أن تُغلقَ على روحكَ وتنعمَ بكتابٍ بِورقٍ يُدثِّرُ روحَكَ يُحْييكَ من جديدٍ.

الاكتفاءُ هو ذاتٌ كبرَتْ ووعَتْ وأدرَكتْ، أَنَّها إنْ لم تكنْ لنفسها كلَّ شيءٍ فلنْ تهنَأ بشيءٍ .

لن يعلمَ المحرومُ أبدًا لذَّةَ الرِّضا وهدوءَ الرُّوحِ، لأنَّه لم يعشْ لذاتهِ يومًا، بل عاشَ ليصمِّمَ خوارزمياتٍ ومعادلاتٍ يُحصِي

فيها نقصَهُ، الاكتفاءُ هو طَبعُ قُبلَةٍ يوميَّةٍ على خدِّ الشّمسِ ساعةَ الغروبِ.

عَبَثُ الخريفِ

نطقَ الخريفُ فصولَ حكايَتي، ودوَّنَ ما لم تمسّهُ أناملِي، داعبَ أرواحَ الصّمتِ الحائرةِ وقادَ الأيَّامَ نحوَ ربيعٍ جديدٍ غريبٍ، ساقَني من الدُّروبِ والأزقَّةِ العابرةِ؛ ليحنوَ على أجزائيَ ويسموَ بالرُّوحِ إلى قمةِ الجبالِ والجباهِ الحالمةِ.

كم أنتَ خفيٌّ وبهيٌّ في حضورِكَ وفي الرَّحيلِ! يا خريفَ العالمِ أجمعَ، أرى فيكَ اختصارَ الأرواحِ ومُجمَلَ الشُّعورِ وكلَّ الرَّوعةِ، أنت للعالمِ نهايةُ مواسمِ العطاءِ، ولي أنا الحنوّ واللَّلهفةُ.

يُقبلُ خريفكَ مداعبًا أوتارَ الغروبِ، يتسلَّلُ إلى أوراقِ العمرِ الدّافئةِ؛ ليمتصَ منها اختزالَ لهفةِ السّنينِ، نسماتهُ توقظُ خلايانا، رعشاتهُ الحانيةُ تشعلُ هِباتِ الماضي والعمرِ الدَّفينِ، أوَّلُ قطراتهِ ونسماتهِ تجبرُكَ خاضِعًا على التَّبسُّم في وجهِ الزَّمنِ، على استحضار العشقِ والعمرِ على مخاطبةِ أرواحِ النُّجومِ.

مواكبكَ يا خريفَ الحبِّ ثَكلى بالشّجونِ، كم أنتَ رائعٌ بالحضورِ ومترفِّعٌ بالرَّحيلِ؟ نعانِقُ غطاءَ الهوى معكَ وتتجمَّدُ الآهاتُ.

قدومُكَ سقوطُ أوراقِ الجفا ودمعةٌ ساخرةٌ على مشاعرَ قُتِلَتْ ولن تُولدَ أبدًا، داعِبْ الوجوهَ والشِّفاهَ والأَنا، راقِصْ حروفَ الذِّكرى، وابقَ عندَ الرَّحيلِ .

وَرَغمَ جَمالكَ نَقفُ على حدِّ الغروبِ ،بينَ عجزِ الظُّروفِ ونَزفِ الدّفوفِ، أقفُ أنا هنا على سواحل قلبٍ يَغربُ عن الحياةِ، يَغربُ عن مَخاضِ الشّعوبِ ولينِ القلوبِ وعزفِ الحروفِ .

أنا هُنا أقفُ بينَ كُلِّي وأجزائِيَ، بينَ طَرَفي وطَرْفي أقفُ لأجمعَ الَّلونَ عندَ الغروبِ وأملأُ الجيوبَ من جمالِ الوداعِ الأخيرِ.

ومعَ همسِ المساءِ ولهفةِ اللّيلِ، أُهديكَ عمرًا من الذّكرياتِ يَحيا على شمعي ويذوبُ في لُقياكَ.

أنتُم لصورِ العمرِ لوحاتٌ، لا أندَمُ عَيشها يوميًّا، ولا أندمُ على الفِراق، أُناديكُم مع هَمسِ المساءِ، حيثُ يُبعَثُ الموتى في حياتنا ويَموتُ الأحياءُ، سلامٌ على رُوحِكم ولكم مِن أرواحِنا بسمةٌ، كُلَّما شَقَّ الصَّباحُ رداءَهُ الحاني وقَبَّلَ المحبّينَ فجرًا وطرقَ الأبوابَ.

الرّحيقُ الأوَّلُ

سمعتُ مفرداتِ البداياتِ كثيرًا وامتلأتُ عنفوانًا وزخمًا، خزاناتُ وقوديَ غُمِرَتْ مرارًا؛ لأكونَ أنا وأبدأَ طريقَ العشقِ الأوَّلِ.

يَنسى الإنسانُ مُجرياتٍ وأحداثَ كثيرةً، لكن لا ينسى الحبَّ الأوَّلَ، يبقى مُنغرسًا في بواطِنِنا بجذورِ عملاقةٍ تأبَى الجَفافَ والموتَ، تنامُ كثيرًا ، تنامُ طويلًا لكن لا تموتُ، عندَ كلِّ وجعٍ تستيقظُ عندَ كلِّ أملٍ وضوءٍ ووهجٍ تطلُّ من جديدٍ رافعةً رأسَها تقول لك: "لا تخفْ، أنا هنا، ببردِكَ أنا المعطفُ، وبخوفكَ أنا الملجأُ، وبوحدتِكَ أنا الأَنيسُ، أنا من رافقَ كُرياتِ دمِكَ منذُ الخلقِ الأوَّلِ.

أَتَذكُرُ يا عزيزيَ؟ كنتُ يمينكَ أيَّامَ مقارعةِ حافلاتِ الجامعةِ، وأيّام التَّفكُّرِ بإذاعاتِ المدرسةِ وحلباتِ النَّثرِ الثَّقافيَّةِ، أنا العزاءُ الوحيدُ لقلبِكَ عندَ الغدرِ والوفاءِ، أنا قلمُكَ، أنا من حوى نُطفَتكَ وغذَّاها من سائِلِهِ ودمهِ إلى أن صارتْ رُوحًا، فنفَثها جنينًا كاملَ الحُسنِ على ورقكَ، على أرضكَ الفارغةِ إلّا منِّي، أنا أنتَ فلا تخفْ يا قَلمي.

كَفَّتيِّ الميزانِ

بينَ كَفتيِّ الفِطرةِ يتأرجَحُ دَربيَ، نَنجرِفُ خلفَ دِفقِ الشّعورِ مُحمَّلينَ على أعناقِ اللّهفةِ لا نُدرِكُ إلّا ومضاتِ سعادةٍ تجري في دِمائِنا كأفيونٍ مخدِّرٍ لكلِّ ما فينا، نَهربُ إليهِ مثلَ طوفانٍ أعمى لا يريدُ إلّا الوصولَ، لِما رأتهُ القلوبُ بأمّ عينيها.

للقلوبِ عيونٌ ضريرةٌ لا ترى إلّا الشُّعورَ والشَّغفَ والرَّغبةَ، وعيونُ العقلِ على حوافِ جبالِنا تُناضِلُ تُكافِحُ تُضيءُ منارةَ المنطقِ، تَبعثُ بالحَمامِ الزَّاجلِ ترسلُ معهُ الخوفَ والانسحابَ، تُشفِقُ علينا مِنّا تَصدَحُ بكلِّ ما تملكُ من سُلطةٍ، ترجو أن تنتَشِلنا قبلَ الحطامِ الأعظمِ.

لكنَّ القلبَ أَمرَ، وأمرُ القلبِ نافذٌ لا محال، فنَمضي كما لم نَكُنْ ونحيا كما لم نُخلَقْ، نَتسرَّبُ من بينِ قَبضةِ القدرِ مَعصوري الدِّماءِ مُكسَّري الأجنِحةِ، لا نكادُ نقوى على الوقوفِ، نُلملِمُ فتَاتَنا نحاولُ فَهمَ ما حدثَ، ولن نفهمَ.

كلُّ ما فينا حُطامٌ، يسكتُ العقلُ، يصمِتُ تمامًا عن البوحِ، يدمعُ على رفيقِ دربهِ ويداري عنهُ المُقلَ، يُربِّتُ على أوردتِهِ المُمزَّقةِ ويَحنو على شغافِهِ المُنهكةِ، يحاولُ استنهاضَ القوَّةِ وبعثَ الرّوحِ الرّاحلةِ التّاركةِ للدُّنيا .

يبكي بحرقةٍ على رفيقهِ الّذي أضحَى أشلاءَ، يعلمُ جيدًا أن دربَ القلوبِ صعبٌ ومليءٌ بالأشواكِ، وجرحهُ أعمقُ من أن يَندَمِلَ بأيّامٍ أو سنواتٍ، لكنَّهُ مُخلِصٌ لا يتعبُ من النُّصحِ منَ الإلهامِ منَ الإرشادِ، منَ التَّبريرِ للقلبِ والبيانِ .

لعلَّ صلابةَ الشّعورِ تأتيهِ، لعلَّهُ يَصدُّ العَابثينَ المُخربينَ الّذين يعبرُونَ القلوبَ كما يعبرونَ زقاقَ الأحياءِ العشوائيَّةِ.

يتنهَّدُ القلبُ ويسلِّمُ آخرَ زفيرٍ للدُّنيا؛ مُعلِنًا نهايتَهُ دونَ وداعٍ.

إعجازُ التّاركينَ

الأوراقُ الصّفراءُ تَسقطُ حتَّى لو قارَعتْ ريحَ الخريفِ، حتَّى لو غادرَتْ غُصنَها المُتخلِّي التاركَ لكلِّ أيّام الرّبيعِ ، لا تأبهُ بزحامِهم ، فليسوا إلّا كما اعتدتَهُم، حُفاةَ الألسُنِ عُراةَ الانتماءِ، أغصانُ الله تنادي تفتحُ ذراعيها مُخضَّلةً، تعطي تَهبُ ولا تردُّ أحدًا، وما دامتْ أغصانُ اللهِ دانيَّةً حاضِنةً حِصنكَ فماذا تريدُ؟

كلَّما حاولوا زلزَلةَ سَلامكَ زادكَ اللهُ التِحامًا وتثبيتًا، ما أجملَ أن تُحارِبَ بمُلكٍ أنتَ عنهُ زاهد!

أنْ تُراقَ أمامَ قدميكَ الجِباهُ محاولةً صعودَ ما تَقْطَعُ أنفاسكَ قبلَ أنْ تَعتَليهِ، ما أروع بُؤسَهم حينَ يظنُّونَ أنَّكَ تراهم أو تسمعُ صداهُم! لن يُدرِكوا ما أنتَ عليه الآنَ، لنْ يعلموا حجمَ المسافاتِ المقطوعةِ وبُعدَ الجغرافيا.

كيف يُدركونَ ما قطعَهُ قلبُكَ من تجاربَ وحروبٍ وانتصاراتٍ؟ بينَنا مسافاتٌ أكبرُ من عمرِ القصيدةِ، بينَنا جُسورٌ أنتُم تعتلوها، وأنا أسعى جاهِدةً لبترِها، بيننا سنواتٌ.

تقاتلونَ الزَّمنَ تملُّقًا، وأنا أقطعُ نثرَ كلاميَ وشعريَ أمامَكم، بيننا وجوهٌ تَسعَون تلميعَها، وأنا أتمنَّى الوجهَ المُشوَّهَ.

أغبى حروبِ الأرضِ، تلكَ الّتي تُقامُ مع المتنازِلينَ التّاركينَ لكلِّ شيءٍ، البائعينَ الرَّاكلينَ الغنائمَ المعتقينَ قطيعَ العبيدِ.

لأجلِ احترامِ ذاتيَ أُتابعُ الطَّريقَ ولأجلِهِ أيضًا لن أفتحَ عيونيَ لأرى العبيدَ.

كُنْ زَيتونكَ

دربُكَ طويلٌ ما لم تبدَأ، وخُطاكَ الأولى مُرهقةٌ محاطةٌ بالضَّياعِ، وهو الشَّيءُ الطَّبيعيُّ لبدايةِ أيّ مرحلةٍ، كلُّ محطةٍ تقرَعُ بابَها تَهابُها، لا تعلَمُ ماذا يوجدُ خلفَ البابِ، وكلُّ مجهولٍ مُهابٌ، مُهابٌ ما دامَ مجهولًا وعندما تَطَأهُ قدماكَ يتحوَّلُ لواقعٍ يُجتَازُ بالخطواتِ، مجرَّدُ خطواتٍ مهما صَعبُتْ، لا بُدَّ مُحقَّقةٌ، لا أطرحُ كلامًا مُنَمَّقًا معسولًا بَل أقولُ ما مارستُهُ ونما داخلَ جنباتِ روحيَ.

كلُّ عظيمٍ عشتُهُ رَسَّخَ عَظَمَةَ الخالقِ بقلبي أكثرَ، كلُّ صعبٍ مرَرتُهُ رفعَ استيعابَ الخالقِ بعقليَ أكثرَ، كلُّ فراغٍ بدأتُ بجيادِ كلماتي ملأتُهُ، خَطَّ خوفَ اللهِ بداخلي، لن يَعلمَ روعةَ الصَّعبِ إلَّا من كان زيتونًا مُبارَكًا لا شرقيًّا ولا غربيًّا، كُلَّما عُصِرَ وثَقُلَ هَمُّهُ أخرَجَ زَيتًا مُبارَكًا أكثرَ.

اتركِ الخوفَ، دعهُ نائمًا تحتَ سردابِ الماضي واعتنقْ صبركَ، لا تنتظِرْ ثمارَ أرضِكَ.

ازرعْ في كلِّ بورٍ، ابدَأْ لعلَّ ظلَّ بذورِكَ تحَميكَ من لهيبِ عدوٍّ أو نَفسٍ رَبُّكَ بِمكرِها أعلمُ.

استسلامُ الاستمرارِ

مُنسابٌ بكلِّ عطائكَ، تجري بأرضٍ لا سنابلَ فيها ولا زهرَ، لا تُلقِ بالًا للصخورِ والأشواكِ والعراقيلِ، وهَبتَ عينيكَ لشفقٍ بعيدٍ قَبلَ خوضِ آخر معاركِكَ، تُريدُ الانسيابَ والولوجَ إلى الأراضي مُنساقًا نحوَ الأمامِ، نحوَ الاستمرارِ والسَّيرِ دونَ التفاتٍ، لم تعدْ كما كُنتَ سابقًا، سامعًا مُناقشًا مُحاورًا مُتعصِّبًا لما تَراهُ.

الآنَ أنتَ جامِدٌ راكِضٌ خَلفَ واقعٍ ليس لكَ ولا مَلكتَهُ يومًا، تبحَثُ عنِ الاستمرارِ دونَ التّفكيرِ بمردودٍ ولا نتيجةٍ، لا تريدُ التّنقيبَ عنِ الكنوزِ، تريدُ أن تُدرِكَ أنَّكَ على قيدِ الحياةِ فقَط.

يقينُكَ باللهِ أنَّه المُطَّلعُ ولا بُدَّ أن يُحوِّلَ النَّوايا والدُّروبَ إلى مَصافٍ أنتَ أهلٌ لها.

لا تنظُرُ حبةُ القمحِ إلى مصيرِها في رغيفٍ ساخنٍ ، هي تأمُرُ الجذورَ بالانغماسِ فقَط، وهكذا الأرواحُ كلَّما انغمَسَتْ فكرًا وعلمًا عَلتِ الرّؤوسُ في طريقِ انغماسِ البذورِ بَحثًا عن مَوردِ ماءٍ وغذاءٍ.

تنطلقُ السَّنابِلُ عاليًا، تستَشرِقُ النُّورَ والضِّياءَ، تعلو وتنمو تعطي الحبوبَ والعطاءَ، لا أعتقِدُ أنَّها أمعنتِ الفكرَ بنهايتِها، بل فُطِرَتْ للاستمرارِ والعطاءِ.

لا تَعلمُ أنَّ الحُلمَ وفطرةَ الاستمرارِ نقمةٌ عندما ينموانِ طوالَ الوقتِ ويتشعَّبانِ في الخلايا، عندَما يُغطِيانِ مدى رؤيتِنا وَيُصرَّان على البقاءِ والوجودِ رَغمَ الموتِ المُحيطِ .

الحلمُ العنيدُ نقمةٌ في سعيهِ الدَّائمِ للوصولِ، رغمَ هِرم إرادَتكَ، تَناقُضٌ قاتِلٌ لا يرحمُ ضعفَ الجسدِ هذا العقلُ، كيفَ لأُمنيةٍ غَصَّ القلبُ أعوامًا بِها أن تبقى حيَّةً؟ أنساها أتناسى وجودَها، وهي صامِدةٌ، غريبٌ إصرارُها، مثلَ عَلقةِ جنينٍ عنيدٍ يَتَشبَّثُ بأحشاءِ الحياةِ رغمَ لفظِهِ من الدَّنيا بأسرِها.

هذا الإدمانُ لا حلَّ لهُ إلا أن يتحقَّقَ، في هذه الحالةِ يهدأُ، ينامُ يرتاحُ، يرحمُهُ العقلُ، يتركهُ مرتاحًا وَقتَها، مُتناسيًا نسيجَ العنكبوتِ وغبارَ السِّنينِ.

علامةُ استفهامٍ

ساعةٌ رمليَّةٌ نَحملُ بينَ أنامِلنا، نُقَلِّبُها فيسقطُ الرَّملُ ببطءٍ شديدٍ، يريدُ مُتَعمِّدًا أن يجعلنا نَملُّ، نَنسى ما هو قائمٌ عليهِ، نحاولُ التّأمُّلَ وبعدَ برهةٍ من الزَّمنِ ننسَحبُ إلى حياتِنا ومتاهاتِنا وتُرَّهاتِنا، بشكلٍ عَبثيٍّ أعلنّا الانسحابَ من وقتِنا وزمنِنا غيرَ مُدركينَ حجمَ المسألةِ.

وتمضي حبَّاتُ الرَّملِ إلى طريقها الأزليّ، ونمضي نحنُ نحوَ الزَّوالِ، وتُقلَبُ الصّفحاتُ وتليها صفحاتٌ، تُملَأُ السُّطورُ بما يستحقُّ الخلودَ والحياةَ وبما يستحقُّ الاندثارَ، ونحنُ ناسونَ أو متناسونَ كأنَّنا مع طولِ الأملِ تركنا حبَّاتِ رَملنا تغادِرُ الأرضَ وتُغادِرنا، دونَ اكتراثٍ ولا احتياطٍ، كلُّ حبةٍ من هذه الرِّمالِ ما هي إلَّا هبةُ اللهِ.

يُحصيها الجميعُ علينا وأولُهم اللهُ، كم أشعرُ بالإحباطِ أمامَ هذه الفكرةِ وأبعادِها! تُلقَى رِمالنا أمامنا، نَتمَعَّنُ بهدوءٍ كَمَّها، هدوءٌ كاذبٌ جدًا ؛ لأنَّ دواخلنا بركانٌ ثائرٌ يَرمي حِممَ أسئلتِهِ متتابعةً متلاحقةً.

لماذا سكتَ الحقُّ في حلقكَ؟ لماذا نُطِقَتِ الفوضى من شفاهكَ؟ لماذا مرَّ العُمرُ دونَ أن يَعبرَني؟ لماذا لم أكنْ أنا واقعًا كما كنتُ روحًا؟ لماذا صَدَّقتَ وكذبتَ ووعدتَ وأخلفتَ؟ لماذا لم أَهبِ اللهَ، واللهُ فقَط كلَّ شيءٍ؟ لماذا لم أركضْ نحوَ عالمي وأحلامي؟ لماذا كنتُ مَسلوبةَ الإرادةِ مُغيَّبةَ العقلِ؟ لماذا لا أتعلَّمُ تَكذيبَ الأفواهِ؟

ألفُ لماذا وماذا، تختَرقُ عيونَنا وعقولَنا ونحنُ نتأمَّلُ تُرابَنا المُلقى، وما أن نُدرِكَ الجوابَ حتَّى تُسحَبَ منَّا بطاقاتُ العبورِ على الأرضِ ويحينَ وقتُ الرَّحيلِ عن مدينةِ الألعابِ والتّرفيَّهِ الّتي عِشناها، ومهما حاوَلنا وعارَضنا وتأَمَّلنا لحظةَ الرّحيلِ لن نستطيعَ استعمالَ ولا تدوينَ الإجاباتِ، ولا حتّى تقديمَ الوداعِ الأخيرِ.

سنترُكُها على السَّطرِ مسلوبةَ الحروفِ والمعنى، مَسلوبَة حتَّى من علامةِ السّؤالِ.

اللهُ

ما السِّرُّ في كلمةِ اللهِ؟ ما هذا البريقُ السّاحرُ الّذي يُنطَقُ من شفاهِنا عندَ لحظةِ الموتِ؟ كيفَ يُنتزَعُ التَّوحيدُ من خلايا المُلحدِ عندَ النِّهاياتِ الكُبرى؟ عندَ لحظةِ اليَقينِ النِّهائيَّة.

اهتزازُ الشِّفاهِ هذا يُخبِرنا أنَّ الثَّباتَ مُحالٌ، وأنَّ الاستقرارَ الدَّائمَ مَحضُ عبَثٍ لا مَحالَ، هذهِ اللحظاتُ على مِقدارِ صعوبتِها إلا أنَّنا نَرتقي فيها، نَعتَلي الصَّبرَ والتَّوحيدَ تَنسابُ الكلمةُ بسلاسةِ الينابيعِ الباردةِ، كأنَّنا فُطِرنا وفُطِمنا وجُبلنا على كلمةِ اللهِ.

مهما عَلتْ نَبراتُ الإلحادِ وصَدحتْ مزاميرُ الإشراكِ عندَ الحدِّ الفاصلِ بينَ الحياةِ والموتِ، يهرُبُ التَّوحيدُ مُعلنًا العِصيانَ المَدنيَّ على كلِّ الأعضاءِ صارخًا في سماءِ الكونِ يا الله.

يا اللهُ، بيقينِ الأنبياءِ يا اللهُ، بِطُهرِ الفطرَةِ يا اللهُ، بعمقِ الجُبِّ يا اللهُ، بظلامِ بطنِ حوتٍ سارَ في ظُلماتِ بحرٍ يا اللهُ، بطريقِ هجرةٍ وصحراءَ نَأَت بخيرِ المُرسلينَ يا اللهُ، بدموعِ عذراءَ طاهرةٍ حَوَتْ كلمةَ اللهِ ، بنارٍ حارقةٍ لا تَحرِقُ توحيدَ المُطَّهَرينَ يا اللهُ، بعجوزٍ تَلِدُ وهي عقيمٌ.

على قيدِ الحياةِ

عندما تَشعُرُ بما تَصنعُ وبما يدورُ في فلكِكَ وما يَعبُركَ من لطفٍ وعطفٍ، عندما تَنسابُ من كتفِ الآهاتِ لتُخلِّدَ قاموسَكَ الخاصَ، وتَدخُلَ كُهوفَ الماضي؛ لتنزعَ رطوبةَ مَن عرفتَهم وعرفوكَ وتُشعِلَ النّور في مثوى الجانِ.

عندما تُعلِنُ الإضرابَ التَّامَ على الفراغِ، وتنحَرُ على مِحرابكَ أوثانَ العدمِ، وتذرِفَ الإنجازَ دَفَّاقًا كسيولٍ تجري ولا يُجرَى عليها، عندَما تَتَنَفَّسُ الصُّبحَ كمولودٍ جديدٍ بروحٍ جديدةٍ تَصرُخُ في وجهِ الدُّنيا أنا هُنا.

عندما تُدارُ الحلقاتُ بالثَّرثَرةِ ويُدارُ رَكبُكَ بالعملِ، عندما تَجحدُ اليأسَ وتهِبُهُ وِردَكَ اليوميَّ مهما قَلَّ وصَغُرَ، عندما تَعتنِقُ صلاةَ اللَّوزِ والعنبِ، وتدركُ زهرَهم الّذي لا يَمِلُّ عن الميلادِ رغمَ سُنَّة الموتِ المُحقَّقِ الّتي يواجهها كلَّ عامٍ.

عندما تَخطِبُ خيوطَ الشَّمسِ عروسًا لكَ، وتقدِّمُ مهرَها ساعاتَكَ وأيَّامَكَ على الأرضِ، عندما تُواري قُرصَ القمرِ تحتَ لحافِكَ وتُطفِئَ البُركانَ بجمرةٍ وتلمسُ رَملَ الشُّطآنِ، عندما تَعشقُ بِنَهمٍ وتَرقصُ عروقك بجنونٍ، عندما تَنحَتُ ذاتَكَ على صخورِ حضاراتِ مأربَ والأنباطِ، عندما يَختَنِقُ عَدوّكَ مِن دربِ نُجومكَ، من موتِهِ المُحقَّقِ لديكَ رغمَ الحياةِ .

عندما تَهرُبُ مِن التّجمعاتِ والهتافاتِ والمظاهراتِ وفوضَى الشُّعورِ إلى ذَاتِكَ وتَصهَرَ أغلى ما فيها؛ لتخرِجَ سبائكَ من ذهبٍ عندها فَقط تَكونُ على قيدِ الحياةِ.

لحافُ الصَّبرِ

تجلَّدَت بالصَّمتِ، نذرَتْ نفسَها قُربانًا لصبرِ أيوبَ، تُذبَحُ على مِحرابِ الفداءِ، من دونِ ردَّةِ فعلٍ أو تَحرُّكٍ، سلَّمتِ الأيامَ رَدَّاتِ فعلِها، فقد تساوتِ الآنَ الآلامُ، ما عاد الشَّروقُ يَعنيها ولا الغروبُ ضيفٌ يُوارِيها.

الرَّاحِلونَ رَمقوا ثَباتَها باستغرابٍ هل تَوسَّدتِ الموتَ قبلَ الموتِ؟ كيفَ لَهم أنْ يُدرِكوا معنى الفقدِ؟ كيفَ لَهم الإحساس بامرأةٍ صارَعتِ الجيوشَ، قارعتِ النُّفوسَ، صَمدَتْ أمامَ الحرمانِ أمامَ احتلالِ حُبِّها، واندثارِ أرضِها وضيقِ صدرِها، مَن سيَشعرُ بامرأةٍ مَشَّطَتْ شَعرَ اللَّيالي والأيامِ، تَحْسِبُ عددَ الخُصلاتِ في كلِّ يومٍ، وتُسمي اللهَ في كلّ مرةٍ تغرِسُ مِشطَ الشَّعرِ في لياليها، عاشَتْ كماشِطةِ فرعونَ، عندَ كلِّ سُقوطٍ تُسمي اللهَ.

من سَيُدَاري جلمودَ أيَّامِها من سيُعطي لأطفالِها الأبوَّةَ، جاءتِ الآنَ لِتُحدِّثَ الكونَ عن ذَاتِها؛ أنا هُنا أقفُ دونَ إحساسٍ، دونَ أقدامٍ لا أعلمُ من يقفُ الآنَ، إنَّهُ أيّ شيءٍ إلَّا أنا، فما عادَ ليَ دَربٌ ولا مَرفأٌ، أنا من أجرَعُ كؤوسَ الصَّبرِ ثمالَةً، أنا مَن انتظرَتِ الحُبَّ عمرًا فاقَ عمرَ الأسطُورةِ.

أنا من تَسلَّحَتْ بحبِّ الطُّفولةِ وبَنَتْ مِنهُ السِّياجَ والأملَ أنا من رَجَفَتْ أطرافُها، وورَدَتْ منابِعَ ماءِ الغدِ، أنا الّتي احتفلَتْ بحبِّ العمرِ عندَما خرَجَ من أسوارِ اليهودِ، وفَكَّ أَسرَهُ طواغيتُ الأرضِ، فأقبَلَتْ عليهِ بنَهمِ المُحبِّ المُصطَبرِ على عَلقَمِ السِّنينِ.

طارَ كلُّ كَمَدٍ عشتُهُ وعايشتُهُ، أُلجِمُ كلَّ الألمِ، فالحبيبُ خارجَ الأسوارِ، وَزُفَّتْ روحيَ قبلَ جَسديَ لملكِ الأسرى، توسَّدتُ ذراعَهُ، ليندبَ الوجعُ أمامَ كمِّ الهوى الموجودِ بينَنا.

تلذَّذتُ بالأملِ والغدِ والقدرِ، خَرجَتْ من روحيَ روحًا أنتَ مَوطِنُها الأوَّلُ، وعشنا أُسطورةً طَريًّا عُودُها، لم يشتَدْ بعدُ.

وعندما ذهبنا لحقلِ الغدِ نأوي بينَ سنابِلِهِ في ليلِنا العتيقِ، جاءَنا اللّحد مُثقلًا مُحمَّلًا مُثخنًا بالحدادِ، وقبلَ أنْ نعقِدَ صفقةَ المقايضةِ، كان الحُكمُ صادِرًا يكفيكُم .

فعمرُ الفرحِ الّذي عاشَكُم أكبرُ من عمرِ الأرضِ، وهنا لا يوجدُ خلودٌ، الخالدُ هوَ اللهُ الواحدُ الأحدُ، وقبلَ أن يوقعَ الموتُ حروفَهُ كانَ هوَ المُتصدِّرَ الزَّاهِدَ بالدُّنيا، كما كانَ الرَّاكبَ للموتِ والكفنِ، وبقيتُ أنا كما كنتُ دائمًا أحاولُ استيعابَ ما حَصلَ.

النَّقيضُ

الإيمانُ المطلَقُ للهِ وحدَهُ قدِّمهُ، مهما تعلَّقتَ وأحببتَ وعشتَ لا تُصدِّقِ النَّقاءَ التَّامَ والطَّهرَ الأوحدَ، البشرُ يرونَ ما يشعرونَ بهِ، ويُسَخِّرونَ الظُّروفَ لميلِ قلوبِهم، الحقُّ المطلَقُ مِنَ اللهِ وعندَ اللهِ فقَط .

من أعتَى الحروبِ الّتي خُضتُها حربُ الثِّقةِ، فمَن يُعاني سذاجةَ الانطلاقِ وعفويَّةَ التَّعبيرِ، مَن يحيا واهِبًا للخارجِ ما يدورُ داخلَهُ، مَن يَصدُقُ الكلَّ، لا بُدّ أنْ يعانيَ مِن حروبِ الثِّقةِ .

بعضُ البراءَةِ نجسٌ مهما تَزَيَّنتْ بالودِّ والسَّلامِ، وبعضُ الشّوكِ عودٌ طيِّبُ الرَّائحةِ والمَعشرِ، عانَى مِن سمومِ الوجوهِ فتجمَّلَ بالشَّوكِ وقايَةً.

امسحْ أيَّ كلمةٍ تُقَبِّحُ فيها أحدًا أو تُجمِّلهُ، شعارُكَ ما رأَتهُ عيناكَ، وما لمَسَتهُ يداكَ، ومع هذا أيضًا لا يقينَ إلَّا باللهِ.

للحقيقةِ ألفُ وجهٍ، ونحنُ نرتَدي الوجهَ الّذي يَخدمُنا ويُعنُينا، حاوِلْ في دربِكَ أن تكونَ واضحَ المعالِمِ، دعْ التَّلوُّنَ والتَّملُّقَ فما زادَ الذّلُّ قومًا أكثرَ ممّا زادَ هؤلاء.

صاحِبُ الحقِّ والوجهِ الفاضلِ يُحترَمُ، حتَّى لو كانَ أشدَّ الأعداءِ، وصاحبُ القطيعِ يَبقى رِمالًا يدوسهُ القطيعُ أينما حلَّت وارتحلَت.

لا ترجُ علوًّا وكلُّ ما فيكَ مُمتَهَنٌ، لا يأخذُ المعاليَ إلَّا مَن رضَوا العزَّ دينًا.

خُذْ مِن أفواهِ النَّاسِ حِكمتَهم؛ لأنَّ الحكمةَ أوجاعٌ، تَجرَّعُوها وتَجرَّعَتهم حتَّى خرجَت مِن أعماقِهم مُسلَّماتٌ.

لا تبتَعدْ فذاكَ الكلامُ حوَتهُ جيوبُ المتعلِّمينَ، ولا تَحسَبْ نفسَكَ أدرَى العارِفينَ، فهذهِ الحياةُ مصابيحُ لا تنيرُ إلا مِن فتيلِ المُجَرِّبينَ.

تلكَ الحروفُ دقاتُ القلبِ خطَّتها وعَمَّقَ المعنَى راعيها، اليومَ تُسمَعُ لعلَّكَ تُدرِكها ، وأرجو منَ اللهِ ألَّا تعيشَ فيها.

بردُ الشِّتاءِ

عندَ كلمةِ الحُبِّ نقفُ حَيارى عاجزينَ عن تحديدِ المسارِ، هل لَمَسنا بردَهُ ونارَهُ؟ هل رَشفنَا كأسَهُ؟ هل عِشناهُ أو عاشَنا؟ كيف نُدرِكُ أنَّ التَّجارِبَ والشُّعورَ كانوا حقيقةً؟ كلُّ حقبةٍ زمنيَّةٍ تمضي في طريقها نُدرِكُ أنَّنا لمْ نعشْ قبلَها شُعورًا قَطُّ، نُدرِكُ أنَّنا كنّا في وهمِ البشرِ نبحِرُ أكثرَ.

سحرُها مَلحميُّ الحلولِ والرَّحيلِ زاخرُ الإحساسِ، يُرسَمُ في قلوبِنا كقوسِ قزحٍ يحيطُنا، يُلوِّنُ يومَنا بكلِّ بهجةٍ وبهاءٍ، يأتي فجأةً مُصاحبًا الغيثَ الرَّقيقَ، يُطفئُ عطشَ الأرضِ وعطشَ أَشعةِ شمسٍ دافئَةِ الحضنِ والمأوَى.

نحيَا بينَ جنباتِهِ، نرقُصُ برقةِ جاريَةِ السُّلطانِ ونَتمايلُ على أعتابِهِ، نرجو الهباتِ والعطايا، نأملُ أن تُشعَلَ نَارُنا أكثرَ، أن نَنذرَ يومنا والغدَ لهُ، لا نرجو إلّا أن نكونَ خُدَّامَهُ وأسوارَهُ الحارِسة والحاميَةِ من أيِّ غريبٍ.

لكِن ما أنْ نَنعَمَ بانسجامِ جمالهِ وروحِ ألوانِهِ حتَّى يغادِرَ أرضَنا بهدوءٍ وانسحابٍ خفيٍّ أكثرَ من خفاءِ حلولِهِ أرضَنا.

نستيقظُ صرعى مُنهكي الشُّعورِ ، نبحَثُ عنِ النَّعيمِ الّذي نما داخِلنا أيامًا بعمرِ الأعوامِ نُفتِّشُ الزَّوايا والأزقَّةَ والدُّروبَ، ندعو اللهَ مِن عمقِ اليقينِ ألَّا يكونَ ما نشعُرُ بهِ حقيقةً.

هل رَحلوا؟ هل باعوا لذَّةَ الأيَّامِ؟

نحنُ ضائعونَ، كانوا ضِياءَ طريقِنا، فتحوا معابِرَ عمرِنا وكلَّ الأزقَّةِ الميِّتةِ، تملَّكوا بعدَ عيسى بعثَ الموتى، ثم ماذا؟

تلاشوا كما لو أنَّهم لم يكونوا، ويريدُ الكلُّ منّا أن نحيا بسلامٍ وهدوءٍ كما لو أنَّنا لم نُطَأ مِن قبلُ، وهل ينمو الرَّبيعُ بعدً الخريفِ؟

لا واللهِ، نحتاجُ إعصارًا أكبرَ من خريفٍ عابرٍ، نحتاجُ شتاءً بارِدًا خاليًا من كلِّ شيءٍ إلا بردَ الرُّوحِ.

حياتِي معَ العُظماءِ المائة

لا أعلمُ ماذا أكتبُ؟

لأوَّلِ مرةٍ تخونُنِي الكلماتُ، ويخجَلُ قَلمي عنِ البَوحِ، أتنازَلُ عن حقِّ التَّعبيرِ مُدرِكةً حجمَ الوجعِ، لأوَّلِ مرةٍ أرتجِفُ عندَ الانتهاءِ من كتابٍ، ويدقُّ قلبيَ عندَ إغلاقِ الغِلافِ، كأنَّ الكِتابَ تمثَّلَ أماميَ رجلًا ممشوقًا فارسًا ضخمَ المَهابةِ، أخجلُ حتّى مِن رفعِ نظرِي إليهِ.

مَن أنا لأُناظِرَ عملاقًا من ورقٍ؟ ورقٍ غريبٍ طالَ مشواريَ معهُ، ربَّما لرغبتيَ الدّفينةِ بعدمِ الوصولِ للنهايةِ ، بعدمِ الانقطاعِ عن ملامستِهِ وتنفُّسِهِ واستنشاقِ غُبارِ الخيولِ الفاتِحةِ، وسماعِ صليلِ السُّيوفِ المُجاهِدَةِ، ودعواتِ الحقِّ الباذِخةِ عطاءً، وحكمةَ الرّبِّ الّتي حَاكَتْ وطَرَّزَتْ خيوطَ الأمَّةِ.

أُلامسُ الحروفَ مُرتجِفةً، والنَّفَسُ يصعَدُ ويهبِطُ بينَ شوقٍ للماضي ولهفةٍ لنصرٍ جديدٍ، وعتبٍ قبيحٍ يُطلُّ برأسِهِ مِرارًا، مُلقيًا في حِضنِنا كُلَّ أدواتِ الاستفهامِ.

ماذا أينَ لماذا كيفَ ومتى تستيقظينَ؟

يا اللهُ، كم شعرتُ بالتَّقزُّمِ والصِّغرِ، كم ذرفتُ دموعًا لا طائلَ منها إلا زيادَةَ حسرَتي بينَ أوراقِ هذا الكتابِ! كم أنا حزينةٌ على فِراقِ شموعِ الإسلامِ الّتي أنارَتْ الصَّفحاتِ!

ماذا أقولُ جِهادُ التّربانيّ؟ بل ماذا أصنعُ؟ كرِهتُ شخصيَ وروحيَ وتلكَ الدُّنيويَّةَ الّتي تسحبُنا خارجَ سِربِ عَمالقةِ الكِتابِ، يا ربِّ، أصلِحنا رَغمًا عنَّا يا اللهُ.

هل لي بحاشيةٍ في زاويةِ العظماءِ؟ أم أنَّ المتخاذِلينَ لا يملِكونَ إلَّا شرفَ النَّظرِ من بعيدٍ.

جيلُنا المُغيَّبُ وأطفالُنا ليس لكُم ذَريعةٌ، وَوجبَ عليكُم تصفُّحَ هذا الكائنِ، هو كائنٌ حيٌّ وليسَ ورقًا، هوَ الهُويَّةُ الحقيقيَّةُ لكُم، كنتُم وستبقونَ بعونِ اللهِ جبالًا راسِخةً في الكونِ.

لو أملِكُ سُلطةً تجعلُ منهُ منهاجًا، هذا الكتابُ صَغَّرَ روحيَ وحجميَ وضاقَتْ أنفاسيَ، فقَد ضيَّعنا الكثيرَ الكثيرَ يا أهلَ التَّوحيدِ، ضَيَّعنا الأمانَةَ وخُنَّا كُلَّ ما لا يُخانُ، كم كانَ كَمُّ الخساراتِ باهِظًا!

يا اللهُ، كم كانَ حجمُ التَّقصيرِ فاضِحًا! هل نحنُ حقًّا أحفادُ هذا الكتابِ؟

هل نحنُ يا تُرى بحجمِ قرونِ الجهادِ والتَّوحيدِ والحقِّ والصَّبرِ والرِّجالِ الّتي زُفَّت أعمارَها للهِ ولنا؟ هل نحنُ بكمِّ التَعويضِ عنها؟ هل هذهِ أشياءُ تُشتَرى؟

كم أتمنَّى أنْ أُشاهِدَ يومَ الإسلامِ المنشودِ وإن لَم أكنْ أهلًا لَهُ.

العظيمُ المئةُ لكَ من قلبيَ كلُّ الأملِ والحلمِ والدَّعواتِ، العظيمُ القادمُ هو المجدِّدُ لكلِّ ما كانَ، أتمنَّى أنْ أُشارِكَ بصناعَتِهِ.

شكرًا جِهادُ التّربانيّ وجزاكَ اللهُ خيرَ الجزاءِ، فليسَ لعمَلِكَ جزاءٌ في الأرضِ.

هذهِ الأعمالُ تَتَنفَّسُ تَتَكلَّمُ تحيا تنبِضُ تخفِقُ ليسَ لها بالدّنيا مقابلٌ ولا جزاءٌ، هذهِ أعمالٌ تُهدَى للهِ ولله فقَط.

لكم التّحيَّةُ والسَّلامُ أنتُم صغاريَ القادمينَ للدُّنيا ربَّما منكُم العظيمُ المئةُ، ربَّما نمسَحُ بِكم وجعَ الأملِ، الأملِ الّذي يُشعرُني بالألمِ، لعلَّكُم عظماءُ الغدِ، فنحنُ خذلنا اليومَ والغدَ.

(كتاب مائة من عُظماءِ أمَّةِ الإسلامِ غيَّروا مجرَى التَّاريخِ) للكاتبِ الرّائعِ :جهادِ التّربانيّ، لم أشأْ أبدًا أنْ أخطَّ أوّلَ كتابٍ لي دونَ أن أَعبرَ إلى سردِابِ عزِّكَ، دونَ أنْ أحيَا دمعَ عينيَّ وهي تمرِّرُ النَّظرَ على حروفِكَ، دونَ أنْ أقولَ لأيِّ عابرٍ على حرفِيَ : " زُرْ ما لا حرفَ يَزِنُهُ ولا عُمرَ يكفيهِ ولا حقَّ يُضاهيهُ، زُرْ جهادَ التّربانيّ وأَقرِئهُ منّيَ السَّلامَ.

مسلسلاتُ رمضانَ

في خِضَمِّ معركةِ المُسلسَلاتِ الهزليَّةِ ولا أقولُ الرَّمضانيَّةِ لفتَ انتباهي مسلسلُ (هذا هو الإسلامُ).

في الحقيقةِ هو للأطفالِ، لكن لا أستطيعُ إلّا أنْ أرفعَ لهُ القبَّعةَ وأنحنيَ خَجلًا من نَقصِنا، لَن أدخلَ في مُهاتراتِ بُطولاتِنا المَسلوبةِ ولا مجدِنا المُغبرِّ خِزيًا منَّا، لكنَّ الّذي أثارَ فضوليَ أسلوبُ رسولِنا الكريمِ الأكرمِ -صلى الله عليهِ وسلَّمَ- في تعليمِ الصَّحابةِ وإعدادِهم للدّنيا والآخرةِ والولوجِ بهِم إلى منابعِ العلمِ والحياةِ والدِّينِ، وهو جالِسٌ في رحابِ مسجدِهِ النَّبويِّ ويخبرُ صحابَتَهُ على مدارِ ثلاثةِ أيَّامٍ مُتتاليَّةٍ أنَّه سيدخُلُ عليهِم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنَّةِ وفعلًا ما أنْ يُنهيَ كَلامَهُ حتَّى دخلَ المسجدَ نفسُ الرَّجلِ على مدارِ الأيَّامِ الثّلاثِ.

مّما دعا أحد الصّحابةِ إلى اللَّحاقِ بهِ وتَتَبعِهِ؛ ليعلمَ ما هو السِّرُّ الّذي يضمنُ لرجلٍ غريبٍ لا يعلمُهُ معظمُ الصَّحابةِ دخولَ الجَنَّةِ وبشهادةِ نبيِّ الحقِّ.

وفعلًا لحقَهُ الصَّحابيُّ وطرقَ بابَ منزلهِ وباتَ عندَهُ ثلاثةَ أيامٍ وجاءَ يومُ فِراقهِ للرَّجلِ وهو مصدومٌ منهُ فلم يفعلْ أيَّ شيءٍ زيادةً عن ذكرِهِ اللهَ والصَّلاةَ المفروضةَ ولم يقمْ اللّيل ولو مرةً.

صارحَ الصَّحابيُّ الرّجلَ بالحقيقةِ، فَدَمعَت عيناهُ منَ الفرحِ وقالَ للصحابيِّ: واللهِ لا أُخفي عنكَ شيئًا هذهِ هيَ حياتي ولا أعملُ ما يزيدُ على ما رأيتَهُ، ولكِن عندَما أخلُدُ للنومِ أمسحُ ما في قلبيَ من غِلٍّ أو كُرهٍ أو أيِّ شيءٍ على النَّاسِ.

فقالَ لهُ الصَّحابيُّ:" واللهِ إنَّها هيَ مَن ضمِنَت لكَ الجنَّةَ.

لم يُلفِتْ نظري القصّةُ والهدفُ العظيمُ منها، بقدرِ ما أَبهرَني أسلوبُ المُصطَفى -عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ- في التَّعليمِ عنْ قربٍ وعنْ بعدٍ، كيفَ قدَّمَ النَّتيجةَ للصحابةِ مِن غيرِ أنْ يَسردَ الأسبابَ والهدفَ والقِصَّةَ.

فكلّنا نعلمُ أنَّ الرّسولَ يعلمُ سببَ قبولِ هذا الرّجلِ عندَ اللهِ، وكيفَ ضَمِنَ الجنَّةَ؟ لكنَّهُ سكتَ ولَمْ يَشرَحْ ولمْ يوضِّحْ ولمْ يُبيِّن، فقط اكتفى برميِّ العَصا أمامَ الصَّحابةِ وتركَ لَهم مُطلقَ الحُريَّةِ في تَتَبُّعِ منابعِ العلمِ، وفهمِ السّببِ واكتشافِ المُرادِ.

ليسَ عاجزًا -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- عن طرحِ القصَّةِ أمامَ الصّحابةِ كاملةً بل وجَلبِ الرَّجلِ ليُقرَّ بما يقولهُ رسولُ اللهِ، لكن غيَّرَ الأسلوبَ، وتركَ للمتعلِّمِ مساحةَ البحثِ والتّقصيِّ والتَّعبِ والتَّفكيرِ والتَّمحيصِ والتَّحليلِ؛ ليخرُجَ الصَّحابيُّ لا مُتعلِّمًا فحسبُ، بل مقتنِعًا مُطبقًا حامِلًا للعلمِ وناشِرًا للدَليلِ عن طريقِ التَّجربةِ والممارسةِ الملموسةِ.

رُبّما أرادَ أن يربِّيَ عندَ الصَّحابةِ الاعتمادَ على النَّفسِ والتَّحري والتَّتبُّعِ، يبنيَ فكرًا قبلَ أن يبنيَ الدِّينَ.

وهذهِ نقطةٌ من فيضِ مدرسةِ النُّبوةِ (أتستبدِلونَ الّذي هو أدنى بالّذي هو خيرٌ؟) هوَ مجرَّدُ مشهدٍ واحدٍ لا أكثرَ من قلبِ أُقصوصةٍ صغيرةٍ نابضةٍ في محيطِ سيِّدِ الخَلقِ.

ونحنُ ما زلنا نُلقِّمُ الحروفَ بالفمِ تلقيمًا؛ لأنَّ أيَّ فكرةٍ بحثٍ وتقصٍ واستخراجٍ لعلمٍ أو معلومةٍ مسؤولية مُلقاة على الطَّالبِ بحثًا وتتبعًا هي سيفٌ بتَّارٌ في وجهِ أيِّ معلِّمٍ وهي دليلُ نقصِ

علمِهِ، وعدمِ تمامِ رسالتِهِ ودورِهِ، فنحنُ جاهزونَ دائمًا لمعركةِ: "لم نأخذْهُ ، لم نُدوِّنهُ".

زرَعْنا في نفوسِنا خوفَ التّنوعِ، وزُرِعَ في طُلابِنا أدلَّةُ القُضاةِ والقضاءِ اتّجاهَ أيِّ معلومةٍ لم تُدجَّنْ وتوثّقْ وتصحَّح في كلِّ الدَّفاترِ، وَتُلقَى في أفواهِهم جاهزةً لا بل مهضومةً، كأنَّ مَعاقلَ علمِنا حَرَّمتِ البحثَ والتَّعبَ والتَّحريَ على طالبِ العلمِ في الصِّغرِ، حتَّى باتتِ المعلومةُ مجرَّدَ فقاعاتٍ تتناثرُ بعدَ أوراقِ الاختبارِ، وهذا ما عشتُهُ أيَّامَ الدِّراسةِ، وهوَ ما جعلنا أمَّةَ جمعٍ للنَّفيسِ لا بحثٍ وتطبيقٍ، يجبُ أن نفهَمَ دائمًا نحنُ الآباءُ والأُمَّهاتُ والمعلمونَ والطَّلَبةُ، أنَّ ما يأتيَ بسهولةٍ يتبخَّرُ بسهولةٍ.

أيُّ مَناهج تدريسٍ بعدَكَ يا سيّدي يا مُحمَّدُ؟؟

حَاوَلوا

كلٌّ منّا يطمحُ لشخصيةٍ لامعةٍ مَحبوبةٍ برَّاقة، يسمو من خلالِها إلى قلوبِ النَّاسِ وأرواحِ الحياةِ، لكنَّ الغريبَ أنَّي لَم أتحرَّكْ لهذا السّحر، لم يطرقْ غِشاءَ قلبيَ سحرُ البشرِ هذا، شَدَّني كلُّ شيءٍ مُصاغٌ للهِ ومن أجلِ اللهِ ، وإنْ لمْ أكنْ أهلًا لهذا الكلامِ، رُبَّما حُبًّا بطموحٍ لا زالَ بعيدًا عنِّي، أمّا حبُّ أحدٍ وجذبُ بشرٍ والنَّبشُ بالقلوبِ ما عادَ هدفًا ولا أمرًا حيًّا في داخلي، لم أعدْ أعشقُ إلا الهدوءَ والصَّومَ عن فوضى البشرِ العابثينَ لا الأهل ولا الصّالحينَ.

حاولوا أنْ تكونوا أنتُم، أن تكتُبوا كلماتِكم، أن تسمعوا صَوتكم ؛ لأنَّ الإبحارَ وراءَ سفنِ المصلحةِ هلاكٌ، ولأنَّ اللُّهاثَ خلفَ المكاسبِ اندثارٌ، ما خُلِقنا إلا لنُكَرَّمَ أمّا الجَريُ وراءَ العِظامِ حرامٌ علينا.

ننسلُّ من عُقدِ الحياةِ والألفةِ حبَّةً حَبَّةً، تغادِرُنا الحياةُ ونغادِرها يومًا بعدَ يومٍ، يَجرفُنا تلاطُمُ أيَّامها؛ لنستيقظَ على فِراقِ عزيزٍ أو بُعدِ قريبٍ لم نشعرْ سابقا كم كان غاليًا وكم كان يملأ ثقوبَ أيَّامَنا بتفاصيلِهِ العذبَةِ، فقَط نُشاهِدُ أنفسَنا فجأةً فارغينَ مِنهُم فنحزَنُ وتَضمرُ روحُنا ونقول:" كانوا معنا هُنا في هذهِ الأرضِ وهذا اليومِ، كانوا وكانوا".

من قال أنَّ النَّاس همٌّ ؟

حاولوا قبلَ النَّدمِ الكبيرِ أنْ تكونوا أنتُم وظلُّ العزيزِ عليكم قبلَ النَّدَمِ.

من قالَ أنَّ القرابةَ عِبءٌ، هم زينةٌ لا نشعرُ بِها، بَل اعتَدنا على نعمةِ الأُنسِ بِهم، وعندَما تُسحَبُ النِّعمُ نُدرِكُ كم كنّا مُشبَعينَ بِهم.

النِّهاياتُ

مهما كُنتَ نقيًّا باطِنُكَ مثلُ خارجكَ، مهما كانَ سلامُ الدُّنيا مَزروعًا فيكَ، ومهما نثرتَ ثلجًا على دُروبِ العبادِ، ستجدُ ظلًّا أسودًا يتابعُ روحَكَ دونَ مَلَلٍ، يُحيطُ عنقَ الحياةِ لديكَ؛ ليُوقِّعَ شرَّه الأعظمَ.

لا داعي للخوفِ، فالحياةُ قائمةٌ على الشَّيءِ ونقيضِهِ، فمعَ كلِّ نهارٍ ليلٌ دامسٌ، ومعَ كلِّ ضيقٍ مَخرَجٌ، وبعدَ الإعصارِ ربيعٌ.

هذه أرضُنا أو هؤلاءِ نحنُ، كُلّنا نلبسُ رداءَ الطُّهرِ والنَّقاءِ ونتلَحَّفُ بطيفٍ ملائكيٍّ الملامحِ، وتحتَ أظافِرِنا بواقيَ لحومِ غيرِنا، كيف لهذا الخَلقِ القويمِ أنْ يُداريَ أخلاقَ الشّياطينَ؟ كأنَّنا تحوَّلنا لمخلوقاتٍ مَنزوعَةِ الهُويَّةِ ، نحمِلُ وجهًا ملائكيِّ الحضورِ وبواطنَ غير بشريّةٍ، نَتنازَعُ طوالَ العمرِ بينَ هذينِ المخلوقينِ إلى أنْ نموتَ دونَ أنْ نعلَمَ أيَّ الفريقينِ نحنُ.

وعندَ الموتِ لن تهتمَّ بعددِ الرَّاكضينَ خلفكَ أو إليكَ، هذهِ دُنيا لا يَركضُ إليها إلَّا من تطاوَلت أعناقُهم إلى مطامِعها، وإنْ لم تَكُنْ صيدًا دسمًا، لنْ تراهُم لا في حياتكَ ولا عندَ الرَّحيلِ، رغمَ الإدراكِ التَّامِ للنهاياتِ المُؤكَّدةِ الّتي لم تَخبْ يومًا إلّا أنَّ النَّفسَ البشريَّةَ تَعتَلي الأكتافَ ونهايتنا حُفرةٌ.

النُّدوب

تلكَ الجروحُ ندوبٌ غائرةٌ، نحنُ من نُسقِطُ ضوءَ النَّهارِ عليها فتَضجُّ الألسنُ بها، ونحنُ مَن نُلقيها في غياهِبِ البئرِ معَ المحاولينَ كَسرَنا مِن شدَّةِ ضَعفِهم.

بلا ملامحَ ولا معالمَ دونَ تَفرُّدٍ وبصمتٍ هَشَّمتِ الحياةُ ما تَبقَّى مِن ألواحِ الذِّكرى والحاضرِ، تركَتِ الواقعَ يجمعُ شتاتَهُ خلفَنا إلّا ملامُحنا ضاعَتْ مَسلوبةً تحاوِلُ جمعَ الصُّورةِ دونَ إطارٍ.

مهما بعثرَتْنا نُدوبُ الحياةِ ودفعَت صبرَنا نحوَ الهاويةِ سَنلفظُ الحرِّيَّة عَصماءَ منَ الكُرهِ، وسأبقى إنسانًا دونَ ملامحَ، لكنَّني إنسانٌ .

إنْ ضاعتْ خطوطُ الصّورةِ فهذا الشَّعرُ الغَجريُّ المُتمرِّدُ مُلقَى على أكتافِ التَّعبِ يحضنُ آمالَنا مُتمرِّدةً صارخةً دونَ صوتٍ.

شفاهيَ تُصرُّ على التَّوقيعِ الأخيرِ والكَلَمِ الأخيرِ والسَّطرِ الأخيرِ، لا تريدُ الرَّحيلَ كما رحلتْ باقي الحواسِ، ورغمَ الإصرارِ لا يوجدُ جمهورٌ ولا حضورٌ، تُركتِ الأنوثةُ منزوعةَ الأظافرِ مُترَفةَ المساحيقِ.

بِلا حياةٍ

كم كانَ الجرحُ عميقًا! كم كانَ مُنذِرًا بشؤمِ الحياةِ! كُلُّنا ظنَّنا مع (غسان كنفاني) أنَّ فلسطينَ فقَط هي المعادلةُ، ببرتقالِ يافا وكرومِ الخليلِ وشواطئِ عكَّا وساحاتِ الأقصى وجبالِ النَّارِ، ويمكِنُنا بعدَ عمليَّةِ الاستئصالِ هذهِ أنْ نتحمَّلَ بترًا لعضوٍ لا يُبتَرُ، وهل يُبتَرُ القلبُ ويَحيا الجَسدُ؟ وبرغمِ هذا تابعنا الخُضوعَ والحياةَ بلا قلبٍ.

أشباحٌ في زمنٍ ليسَ زمانَنا، نَضُخُّ الدَّم منَ الدُّموعِ حتّى بدأَنا بذاتِنا نأكلُ ذَاتَنا، نَقضِمُ إصبعًا ثمَّ يدًا ثمَّ نمزِّقُ لحمًا ونكسِرُ عظمًا ونُدثِّرُ رحمًا، ونُحصيهم جميعًا داخلَ كفنٍ عتيقٍ مُخضَّبٍ برائحةِ شهيدِ النَّكبةِ وفقيدِ النَّكسةِ.

كم كانت خساراتُنا متواضعةً! كم كانت آلامُنا بحجمِ كلِّ شيءٍ! وكم كُنّا ضائعينَ عن ذواتِنا ومُنهكي الدُّروبِ نحلمُ بمفتاحِ المنزِلِ والعودةِ.

طالَ الوجعُ وكَثُرَ الصَّدى، هرمتِ الأناملُ وتجعدتِ الرُّوحُ الّتي حملتكَ طريدًا شريدًا وحيدًا في الشَّتاتِ.

آهٍ يا دارُ، آهٍ على الزُّوَّارِ نَسجوا من دَمِنا سياجَ البُعدِ، فلا عُدنَا ولا فُكَّ السِّياجُ، ثَقلَ المفتاحُ وبَعُدَ الفتحُ، ودمَّرتْنا الرِّياحُ.

رفقًا على البابِ رفقًا عندَ الطَّرقِ وعندَ النَواحِ.

الخيارُ الوحيدُ

أنا الحرَّةُ الّتي تأبَى الزَّوالَ والاندِثارَ، أنا من أتركُ خُصلاتِ شَعريَ وشِعرِيَ قبلَ الرَّحيلِ؛ لأُبقيَ الكلَّ هائمًا يحاوِلُ أنْ يجدَ بعديَ بديلًا .

فؤادُكَ لن أرضاهُ ما دام لأرضيَ مُستعمِرٌ لا أسيرُ، الحبُّ أنثى وانتهى زمنُ العبيدِ، مسكينٌ من بَحثَ لمُلكِهِ عن ملكَةٍ تنازَلتْ عنِ العروشِ واشترَتْ كتابَها والرَّحيلَ.

بعدَ رحيلِها تجتمِعُ طقوسُ الإحباطِ وألوانُ الوجوهِ، وعبثُ الأقدارِ وتردُّدُ البشرِ المَقيتُ يَتَجلَّى؛ لتأتيَ أنتَ مانِحًا سُلطَةَ الهدوءِ وعصفَ الوقارِ، تأتي تُجلِّلُ فوضى حياتي تُرَتِبُ دقاتِ القلبِ وتَرْبِتُ على ضياعيَ وتقولُ: أنا هُنا؛ لأرحلَ بكِ بعيدًا أداعبُ ثغرَكِ وأحزانيَ، أحبُّكِ بعمقِ الحروفِ ودفقِ الشُّعورِ وعِشرَةِ اللّيالي والسِّنين.

وأنا أعشقُ هروبيَ إليكَ، يا كِتابًا حوى رحلةَ النِّسيانِ وطُرقَ الرَّحيل، يا عابثًا بِبَرديَ ودفئِيَ ووقودَ الفتيلِ.

أنا الحرَّةُ الّتي تأبَى الرِّجال وتَهوى اللُّغةَ، فهيَ الثَّابتةُ إخلاصًا وتخليصًا للروحِ، وهي الحيَّةُ الّتي لا تَقتُلها تقلباتُ الزَّمنِ والشُّخوصِ تبقى ناثرَةً لذاتِها مُبعثِرةً أحزانَها وتبقى حروفُها أشدَّ خليلٍ.

قيثَارَتي

تسمو القيثارةُ فوقَ غيومِ روحيَ، تَعزِفُ جذورَنا تُراقِصُ دموع الغدِ، تَشقُّ أنفاسَ السُّباتِ فينا، تُعانِقُ نبضَ الحياةِ تُعانقُ لَحنَ الأنا، لحنَ خلودٍ لا فناءَ بعدَهُ.

رمِّمْ الرُّوحَ واصنعْ سُلَّمًا تُحاكي فيهِ أناملَ السّماءِ، اغرسْ مدادَ أحلامكَ في نبضيَ فأنا وَطنٌ راياتُهُ أنتَ.

أجملُ ما في الوجودِ اختلافنا عن الصُّورِ، كأَنَّ تضاريسَ كوكَبكَ عذراءُ من البشرِ، تُنادي عروقيَ تَضمها لدُنياكَ، دُنيا تُطَهِّرُكَ من الدَّنسِ؛ لِتُجسِّدكَ تمثالًا عاريًا إلّا مِنكَ أنتَ.

كأَنَّكَ بلا تاريخٍ بلا ماضٍ بلا أصلٍ، تَربتُ على كتفيكَ تلامسُ وَجنَةَ القلبِ وتقولُ:" أَنتِ أنا، ثمَّ تُلاطِفُ الرَّأسَ وتمسحُ ما فيه من بشرٍ؛ لِتنقُشَ أحرفَها واسمَها".

تستيقظُ من هذا الوهنِ، فتجدُ روحكَ تنازعُ البشرَ، تريدُ خلودًا لكَ ولها، أنتَ وأنا فقَط وما عدا ذلكَ منحوتاتٌ تفرِضُها الحياةُ بِدربِنا.

صارعتُ أعوامًا وأنا أكابرُ هذهِ القناعةَ؛ لأَجثوَ الآنَ بينَ يديكَ سيدي قائلةً:" فعلًا صدقتَ، أنتَ وأنا والحياةُ نُجَسِّدُ اللَّحنَ.

عتمةُ السّردابِ

كُلّنا نعاني من فَقدِ البصرِ، كُلّنا نطوفُ داخلَ أورقةٍ مظلمةٍ مليئةٍ بالعتمةِ والسَّوادِ، السَّوادِ الّذي نجولُ بداخلهِ بحثًا عن الحريَّةِ بحثًا عن العتقِ من سياطِ الجبروتِ والاستغلالِ وتَحكُّمِ قوى العتمةِ.

في هذا السِّردابِ نركضُ نحوَ الحقِّ الطبيعيِّ نحو الفطرةِ الّتي جَبَلنا الله عليها فطرة الحريَّةِ، مِنَّا من يكونُ ضحيَّةً ويقعُ تحتَ وقعِ الأقدامِ ومنَّا من ينجو ليرى.

يرى عبوديةً جديدةً من نوعٍ جديدٍ، عبوديَّة مباشرةً وجهًا لوجهٍ مع أصحابِ السِّياطِ.

ثمّ ماذا؟

لا شيءَ نكتشفُ وسطَ النُّورِ أنَّ زعيمَ الظُّلمِ والظَّلامِ ما هوَ إلّا عَبدٌ صغيرٌ مسحوقٌ كما الكلِّ، صَعدَ على جِباهِ الجميعِ وهو لا يعلمُ أنَّهُ النَّمرودُ المُنتَظر، يُسقِطُ من حولَهُ، دونَ وعيٍ وإدراكٍ، فقَط فطرةُ النَّمرودِ هي الّتي تَسوقُهُ.

لا يعلمُ كيفَ؟ ولا متى؟ ولا لماذا أتَى؟

يعلمُ فقَط أنَّ النُّورَ والظَّلامَ عبيدٌ يبحثونَ دائمًا عن جلادٍ.

لَمَستُ الغِنى

هل جرَّبتَ يومًا أن تَفتَرِشَ الطَّبيعةَ وتتلحَّفَ الفضاءَ، حاولتَ أن تُسلِّمَ روحَكَ لموطِنها الأصليِّ ومنبِعها الأوَّلِ؟

حاوِلْ أن تعشَقَ بردَ الرَّبيعِ وتَتَعرَّى رُوحُكَ من أَردانِ البشرِ، وأن تَرتَديَ عشقَ الأرضِ.

سلِّمْ نفسَكَ لخَلقِ اللهِ الغريبِ تكوينًا، سلِّمْ قلبكَ لِمن يَسمعُ الشَّكوى دونَ اعتراضٍ ولا عبثٍ.

كنتُ كلَّما خَيّمْتُ في رِحابِ الخالقِ أستشعِرُ معنى الجمالِ والسّلامِ النَّفسيِّ وأَذرفُ هَمَّ الأرضِ وأتخفَّفُ من وزنيَ تمامًا حدَّ التَّلاشي، أشعرُ كيفَ يحيا الفَراشُ؟ وأعلمُ جيدًا أن عمرَهُ القصيرَ وهو هائمٌ بينَ الزُّهورِ والخُرافةِ أثمنُ من أعمارِنا، وأُدرِكُ تخاطُرَ الأرواحِ الأحياءِ منها والأمواتِ، وأفترشُ عمري قربانًا للبحرِ والصُّخورِ، كيفَ لي أن أحيا سليمًا من الحرمانِ ووجعِ النَّقصِ بعدَ هذه اللّيالي الّتي عقدتُ معها قِرانَ العشقِ الأوحدِ؟

فيها تعلَّمتُ معنى الهباتِ الكُبرى الهباتِ المُعطاةِ دونَ مقابلٍ ولا ثمنٍ، هناكَ فقَط أيقنْتُ معنى الثَّراءِ وحجمَ الجمالِ الّذي تَهبهُ الطَّبيعةُ لنا ونحنُ خلفَ الجدرانِ الإسمنتيَّةِ نذرِفُ بطاقاتِ عُبورِنا على الأرضِ دونَ أن نَعبُرها، عشتُ تَجلِيَّ الكائناتِ نحوَ دربِ السَّماءِ ورقصِ النُّجومِ وعزفِ القمرِ، تحدَّثتُ للسفنِ وصارَحتُ الجُزرَ في البحرِ، كم أهواها وأعشقُ تَمرُّدها واستقلالها عن البَرِّ واختيارها البحرَ مرفأً ومرساةً، ما أجملَ هذا التَّمرُّدَ!

تركَتْ أترابَها واختارَتْ قلبَ البحارِ المالحةِ موطِنًا لها، لا بُدَّ أنَّها عانتِ الوحدةَ، لكنَّها ربحَتِ التَّفرُّدَ والتَّميّزَ والتَّوحُّدَ مع الماءِ؛ لتكونَ أيقونةً، فما اعتدنا اليابسةَ وأمانَ الخطوةِ في قلبِ البحرِ لهذا تميَّزَتْ، لهذا برزَتْ في مكانٍ لا مثيلَ لها فيهِ.

فخَطفتِ العيونَ والأنفاسَ واستقلَّتْ بروحيَ بعيدًا، هناك وجدتُ الحياةَ كما لم أعشْها سابقًا، لمستُ كنوزًا لا حدَّ لها ولا عدَّ .

ارتديتُ البحرَ وتلحَّفتُ الشَّجرَ هناكَ اكتنزتُ بالثَّروةِ، ثمَّ عُدتُ إلى جدرانِ الإسمنتِ مُفلِسًا.

الرّسّامُ

من منّا يملكُ خيارَ البقاءِ والوقوفِ بجانبِ رسَّام الوجوهِ، رسَّامَ الرَّصاصِ الأسودِ، من منّا يَلجأُ إليهِ في أقسى لحظاتِ الشَّوقِ؟ من قالَ أنَّنا افترَقنا؟

من قالَ أنَّنا ضِعنا وتركنا دربَ الهوَى؟ لم نترُك شيئًا صدِّقني، ولا تضحَك ضحكَتكَ الصّفراءَ، ولا تغضَب أخافُ عينيكَ عندَ الغضبِ.

نحنُ باقونَ هُنا، مثلَ جذورِ الزَّيتونِ مُنغَمسونَ بِبَعضِنا، بل نبحثُ عن بعضِنا دائمًا رغمَ المستحيلِ الّذي وَقَّعَ بأهدابِهِ آخرَ سطرٍ بالحكايةِ.

لا تندَهشْ أنا وأنتَ نبحثُ في الوجوهِ والطُّرقاتِ والأزقَّةِ عن العمرِ الّذي ذُرِفَ مِنّا، نذكرُ آخرَ جلسةٍ وآخر توقيعٍ، نذكرُ كلَّ ما كانَ؛ لنحيا بهِ ما سيكونُ.

نحنُ لا نزالُ هُنا وهُناكَ، نحنُ باقونَ رغمَ الرَّحيلِ.

كلماتي وليدةٌ تبحَثُ عنّا، لكن معالمَ الطَّريقِ مطموسةٌ، تحتاجُ طوقًا يَلتَفُّ حولَ صاحبةِ الحرفِ؛ ليجتَثَّها من ذَاتِها ويعلِنَ عليها التَّمرُّدَ .

صفحاتُ الذِّكرياتِ عميقةٌ والأبجديَّةُ تائهةٌ بينَ الكاتِبةِ والقضيَّةِ، كُلُّنا نحتاجُ صقلًا وجرفًا وحبًّا وإحياءً لكلِّ شتاتٍ فينا، نحتاجُ سكينةً نُميتُ فيها الفوضَى، ونبعثُ الصَّبَابَةَ والصَّبيّةَ فينا.

ورَغمَ البعثِ لن نُبعثَ ولن نحيا ما مضى، فالميلادُ مرةٌ ومرةٌ واحدةٌ فقَط، لا يُولَدُ الشُّعورُ إلّا مرةً وقد وُلِدَ وانتهى،

انتهتِ اللّوحةُ المرسومةُ بالرَّصاصِ، والرَّصاصُ يُمحى بكلِّ سهولةٍ يُمحى.

لم يبقَ في ورقي المُرسَلِ لكَ إلّا عُبورَ أنامِلي فوقَهُ ولمسَهُ، تلكَ الأناملُ الّتي حفظتِ الرِّسالةَ والمُرسلَ إليهِ عن ظهرِ قلبٍ؛ لعلّكَ تذرفُ يومًا دمعَ الشَّوقِ بعدَ جفافهِ مرةً.

القَش

العمرُ كفيلٌ بنحتِ التَّجاربِ وقطفِ ثمارِ التّحوّلِ، في مَسارِبنا ما يَعجزُ الآباءُ عن شرحِهِ، تُعلِّمهُ الدّنيا لَنا سواءَ بالحُبِّ أو بالإكراهِ، فلا ترفعْ قدرَ نفسِكَ، دعِ اللهَ يرفَعُكَ، فمَنْ رفعهُ اللهُ لن تكسرَهُ مخلوقاتُ اللهِ.

المستحيلُ كلمةٌ شربَتْ سُمًّا قديمًا لدي، دونَ أن أُرغمَها على شيءٍ.

كلُّ ما رأيتَهُ عظيمًا انقضى دونَ وداعٍ أخيرٍ، وما عَظَّمتَهُ هدَمَتهُ يدُ البشرِ بلحظةٍ.

الأماني تقفُ في زوايا العمرِ مبعثرةً مرةً وضائعةً مراتٍ عديدةً، نحاولُ طوالَ العمرِ رفعَ سقفِ المنجزاتِ ولا أنكرُ أنَّ العملَ ذراعُ الهدفِ الأوليِّ، لكنّ اللهَ أحيانًا يَحولُ بينَ المرجوِّ والمُمكنِ لحكمةٍ لا يعلمُها إلّا هوَ.

وأنتَ بينَ الجميعِ ضائعٌ ومسالمٌ وثائرٌ وكلُّهم لن يثمروا مع القدرِ إلّا ما شاءَ اللهُ.

يُتعبنا الحلمُ وأحيانًا يَمدُّ يدهُ لنا ليسحبَنا من دربِ الحياةِ، وما أن نُبادلَهُ اللّمسةَ حتَّى ينسلَّ من بينِ الأصابعِ وخفقاتِ القلوبِ.

تناظرهُ العينُ وتكتسي الأَهدابُ رونقَ الوداعِ والنَّومِ البعيدِ، وتَشتَعلُ الحسرةُ مرةً والنِّسيانُ مراتٍ، لكنَّ الاختناقَ الّذي يقفُ بين الحلقِ والشِّفاهِ يَكسرُكَ مرارًا، ومهما فعلتَ ستبقى مخنوقًا لذلك تناسَ، وإن كانَ النِّسيانُ صعبًا فالتَّناسي مُمكنٌ، تناسَ

جُرحَكَ وحلمكَ وتعبَ العمرِ الّذي اكتوى من آلامِ عظامكِ ولم يكتوِ أو يخضَع.

مَن قالَ أنَّ الحلمَ والألمَ يُنسى مع الزَّمنِ، هو يَنامُ فقط، نحنُ من نُجبِرهُ على النَّومِ نأخذُ الإذنَ منهُ؛ ليرتاحَ قليلًا كي نفرحَ قليلًا، نرجوهُ أن يَنسانَا مرةً؛ لنحيا مراتٍ.

يُلبي النِّداءَ أحيانًا ويرفضُ الرُّضوخَ مِرارًا، تعلَّمْ أن تُطَوِّعَ روحكَ وتُخضِعها لبسمةِ شفاهٍ كاذبةٍ تُزَيِّن فيها وجهكَ؛ لتُسكِتَ فضولَ المستفسرينَ، هبِ الجميعَ بسمةً، واتركْ حروبَ الرّوحِ معَ الرّوحِ.

إن أَزهرتَ يومًا فاحمدِ اللهَ، وإنْ ذَبُلَتْ أوراقُ التّينةِ المباركةِ وسقطتْ حَباتُها صَرعى على تُرابِ عمركَ فكُلنا تراب.

اعتيادُ البرودِ يكفيكَ عناءَ الصَّدمةِ والاحتراقِ، فبعضُ المحبِّينَ كوماتُ قشٍّ تنثُرُها الرّياحُ في فيافي الصَّحراءِ، وهم مُصرونَ أن يتجاهَلوا ماذا يفعلونَ في قلوبِنا؟ نمْ قريرَ العينِ، واتركْ للهِ صنيعَهم والواقعَ والأحلامَ.

تَغَيَّرتُ

تغيَّرتُ وبِتُّ أكثرَ هروبًا وانسحابًا وأكثرَ طيرانًا إلى عوالمَ منفصلةٍ عن الواقعِ، وباتَ الألمُ البارِدُ العاديُّ أشدَّ وطئًا والنّاسُ أبعدَ روحًا.

تغيّرتُ وانسحبتُ من الحوارِ الأجملِ، بل صرتُ أخشاهُ وأهربُ من سطحهِ وفحواهُ، لازَمني البرودُ والشُّرودُ، وعشقتُ الحديثَ الصَّامتَ معَ نفسيَ ونفسيَ فقَط، تغيّرتُ وزادَ النَّدمُ على الكلامِ والبوحِ مهما قلَّ، وزادَ الابتعادُ رُوحيًّا وجسديًّا عنِ المحبِّينَ، وصارَ أشهى الأوقاتِ وقتيَ مع نفسيَ.

تغيّرتُ وأعلنتُ الانفصالَ عنِ الأملِ والحلمِ وقَّعْنا ورقةَ طلاقٍ لا رجعةَ بعدَهُ أبدًا، حتّى تحوّلَ الحُبُّ كُرهًا والشُّعورُ حجرًا صلدًا، وانتُزِعَ العطفُ وأضحَى بُعدُهم المُفضَّلَ لديَّ، تغيّرتُ وتوقَّفَتْ على شفاهيَ كلُّ التَّبريراتِ والأعذارِ وباتَ اللاشعورُ موطني.

وكفرتُ بالحُبِّ، بالأنوثةِ، بالعطاءِ، ما عادَت تُغريني عيونُهم ولا تَرَقَّقَ الدَّمعِ فيها، تغيّرتُ وزادَت عددُ الدّوائرِ المَرسومةِ حوليَ، وكلّ يومٍ أرسمُ دائرةً جديدةً خارجَ القديمةِ.

وجفَّ الدَّمعُ فأكبرُ شكوًى لأعزِّ روحٍ لن تَتَعدَّى التَّنهيدةَ، فتلكَ آخرُ أسلحةِ الاستمرارِ، تغيّرتُ وأصبحَ الوقتُ كنزًا ثمينًا لا يُهدَى لأيِّ تافهٍ وعابرِ سبيلٍ، باتَتْ دقائقُ اليومِ الأغلى والأعزَّ على الرُّوحِ، ولا أفرَحُ بتقديمها إلّا لاعتكافيَ وكفافيَ عن الخَلقِ.

سيِّدي الفاضلُ

وحدَنا عشقنا رسمَ شواطئَ البحرِ حبًّا، وحدنا لمسْنا ذراتِ التُّرابِ فيهِ وخطَطنا حُبَّنا وهوانا وبراءَةَ الحياةِ الأولى، كم كنّا ملائكةً في الهوى وكيفَ أصبَحنا الآنَ بعدَ هجرِ شواطئِكَ؟

جافونَ نحنُ منَ الماءِ منَ البحرِ ومن ضحكاتِ الشّذا، كم كُنتَ مدينةَ السُّكونِ! وكم تُهتُ بحبِّكَ حتَّى ذابَ العشقُ منَّا! آهٍ على مدنِ الرُّجولةِ، كم هي عذراءُ بالحبِّ ونازيَّةٌ بالنَّوى.

شهيَّةٌ رشفةُ الحياةِ معكَ، عندَما تعبُرُ من شِفاهِ القدرِ وتسري إلى عروقِ الحياةِ، وتَبثُّ في نجواكَ سهَرَ الفِراقِ، نُصبِحُ نحنُ بفضلها على فنجان قهوة الشُّرفاتِ الأعلى هُيامًا.

ثمَّ أستيقظُ على لمسِ أنامِلك كأنّها عودُ أحلاميَ، تعزِفُ رونقَ روحيَ؛ لتسموَ أنفاسِيَ بوجودِكَ بصوتِكَ بهمسكَ بكلِّ ثناياكَ، وأعودَ أنا أرشفُ مِن بحورِكَ دِفئيَ وأَمنيَ.

سيدُ عُمريَ الفاضلُ هذهِ سمفونيَّةٌ عاجلةٌ من أنثى ما عادَتْ ترغبُ إلّا بثورةٍ، ثورةٍ على الدُّنيا أسرقُ مِنها الثَّوانيَ والأيَّامَ والدَّقائقَ والسَّاعاتِ؛ لأُحلِّقَ بكَ نحوَ الجُنونِ (سيدَ عمري الفاضلَ).

بين أوراقي سأُخلِّدُ ربيعكَ، وأنثرُ شِعريَ على سطورِ الطُّرقاتِ الضّائعةِ، بستانُ عمريَ مغروسٌ بأنامِلك، فلا زهرُكَ يذبلُ ولا عوديَ يشتدُّ؛ لأبقى طوعَ كفيكَ وأسوارك.

العَجزُ

ويحدثُ أن تُسجِّلَ روحكَ أحلامًا تَعجزُ عنِ النُّطقِ بها تَعجزُ عن تطريزِها ثوبًا أنيقًا يُسجَّى فوقَ ذراتِ الجسدِ وفتاتِ الحلمِ وعمرِ الغربةِ فينا.

ويحدثُ أن يَسقطَ القلبُ منكَ، أنْ تمرَّ لحظاتُ العمرِ بلمحةٍ واحدةٍ؛ لتُشعلَ فيكَ بريقًا رحلَ ودموعًا تَتَساقطُ تباعًا دُونما استئذانٍ ولا عنوانٍ، تخبرُكَ أنَّ كلَّ شيءٍ فيكَ مازالَ حيًّا، وكلُّ ذكرى مازالَت ترقصُ في سماءِ العقلِ، كنتَ هُنا وكنَّا هُناكَ وكان كلُّ ذلك، إلى أنْ ترتَطمَ بالسَّاعةِ وتغتالكَ عقاربها وتقسِّمَ العمرَ، أنتَ هُنا الآن واللهُ اختارَ الأعلى والأعظمَ، ارجعْ للأرضِ لعلَّ الرُّوحَ ترثي الأمنياتِ.

ولملِمْ ألوانَ لوحاتِكَ وامضِ في دربِ السَّماءِ، في حضنِ النَّجمِ الأكبرِ، في عطاءِ الحروفِ النَّائمةِ على أكتافِ الجبالِ .

تُرهَقُ أفكارُكَ أكثَر منكَ، تُناجيكَ ليلًا، ارحمْ ضعفَ إنسانيَّتكَ وارحمْ سَجيَّتكَ، وَدعْ مسؤولياتِ عمركَ، واركضْ وراءَ طفولةِ الأيَّامِ الماضيةِ، طفولةٍ مَنزوعةِ التَّعبِ مَسلوبةِ الأرقِ، تنامُ في أعماقِ الحُلمِ، تَغفَى على خدِّ الزَّمانِ من شدَّةِ اللَّهوِ والضَّحكِ ولا تُفكِّر إلّا بأُرجوحةِ الغدِ.

صباحُ الخيرِ

خيوطُ الشَّمسِ خَجلى تُداعبُ الجباهَ الحالمةَ الصّامتةَ عنِ التَّعبيرِ، الصَّائمةِ عن مُجمَلِ الكلامِ.

الجُدرانُ تَضمُّ بقايا البشرِ تحنو على أَجزائِيَ، تُهَذِّبُ جدائلَ شَعريَ، تَسرحُ في خلودِ الخالقِ، في نفسٍ مُشتاقةٍ لولادةِ روحٍ.

جميلٌ صباحُكَ وطني، جميلٌ بحبِّهِ الكبيرِ بعطاءِ شمسِهِ، جميلٌ بشهيقِ الصُّدورِ المُصاحبةِ إعلانَ الصَّباحِ، كلُّ مافيكَ جميلٌ، كلُّ ما فيكَ أمٌّ وحضنٌ دافئٌ.

فجرُكَ نابضٌ بدماءٍ تُسبِّحُ اللهَ في شرايينِ الحدودِ والخرائطِ؛ فتجعلُها تنطِقُ أمنًا وأمانًا، سِلمًا وسَلامًا.

فداكَ تعبُ العمرِ كدُّ الأبِ وسهرُ الأمِّ، فداكَ ساعاتُ العشقِ، فداكَ أوطانُ الدُّنيا مَوطِني.

صباحُ الشّوقِ لضحكاتٍ وأيدٍ حَرَّى، صباحٌ مُعانقٌ غيومَ السَّماءِ، يحتضِنُ فيها فَقرَهُ وأُناسًا جَمعوا شتاتَ العالَمِ بأسرهِ؛ ليقدِّموا عقلًا مُفعمًا بذكرَاهُم.

صباحُ القلوبِ النّابضةِ برائحةِ السِّنينِ البائدةِ، وآثارِ القرونِ السّابقةِ وهي تتمازَجُ وتتزاوجُ مع رطوبةِ العمرِ وندى الخريفِ.

كم هو جميلٌ صوتُ أمطارِ الحنانِ على الشُّرفةِ الحاملةِ زهرَ البنفسجِ! وهوَ المُشتاقُ لحبيبٍ داعبَ أوراقهُ المُفعمةَ بالصِّبا والأحلامِ.

سلطانُ قهوتي وقيثارةُ الأمطارِ لوَّنتْ أجنحةَ الوطنِ بصبحٍ جديدٍ يتنفَّسُ طرقاتِ الماضي، يَسحبُ أنفاسهُ من صورٍ ما عادَ يُدرِكُها أحدٌ غيرُهُ، كم يبعثرُ الشَّتاءُ أوراقيَ، وكم يُبرِّدُ لظَى الذِّكرياتِ!

امضِ في سرابِ العمرِ حاملًا نهايةَ الكونِ وبدايةَ النَّبضِ وطيفَ الوطنِ، رافِقْ خريفًا مَرَّ فوقَ أوتارِ الشِّفاهِ المُطبقةِ، وارحلْ .

العنيدةُ

تلكَ الجميلةُ كيفَ أعشقُها؟ كيفَ أسمو لثغرِها؟ وكيفَ أرنو لكلِّ ما تَأملُ؟ نضجتْ أيامي وأنا أناظرُ ثمرَ العمر أناظرُ شبعًا بعدَ جوعِ الدَّهرِ كُلِّهِ، تلكَ العنيدةُ كيفَ أُرجعها لأقفاصِ الرُّجولةِ وأقلامِ حبرٍ لا تنضبُ؟ تلكَ السَّيدةُ الفرسُ الجسورةُ كيف أُلبسُها ثوبيَ العتيقَ ولا تخلعهُ؟ تلكَ النَّاطِقةُ بحروفِ القلبِ، كيفَ وكيفَ أُخضِعُها أُرجعُها؛ لتموتَ في كفيَّ ولا تسألُ؟

أحبُّها وأعشقُ ثغرَها الدَّاميَ وأرنو لصبوتِي وأيَّامَ هُياميَ، تلكَ الجَسورَةُ زَلَّتي.

وإن أدمَى الضَّبعُ ثلجَها الدّافي، هي علَّمتني الحُبَّ، هيَ شهيقي عندما تُسحَبُ أنفاسيَ.

لنا اللهُ يا مُدنَ النِّساءِ، أقفُ أشتمُّ عطركِ المَنسوجَ على ثوبكِ الحاني. أجملُ ما في الوحدةِ أنتِ، وأرقى ما في الفكرِ الطَّريقُ إليكِ، طريقٌ يمسحُ خلفهُ تعبَ الأيَّامِ، من دونكِ متحجِّرٌ أنا حدَّ الصُّوانِ ، بارد حدَّ التّجمُّدِ، جافٌ حدَّ التّصحُّر.

كيفَ السَّلامُ ؟ كيفَ السَّكينةُ والوصالُ؟ كيفَ تُساقُ السَّبايا والعبيدُ إليكِ بلا عودةٍ؟ كيفَ يكونُ التَّفكُّرُ التَّوحُّدُ التّنصُّلُ من كلِّ ما هوَ موجودٌ إلى نبضِ الوجودِ؟

دُلَّني

الحياةُ والكونُ مجموعةُ ألغازٍ تَرسُمُ في كلِّ جزءٍ من الثَّانيةِ حقيقةُ الخالقِ المبدعِ، وكيف يَخضعُ الكونُ لنظامهِ الدَّقيقِ الّذي لا يدخُلهُ الخَلَلُ أبدًا؟

كُلُّنا لوحاتٌ رسمَها مبدعٌ واحدٌ تعالى عن تمامِ الوصفِ، موتنا تَحلُّلنا، حياةٌ أخرى لنا ذوَبانُنا في ذراتِ التُّرابِ؛ لنثمِرَ من جديدٍ بروحِ شجرةٍ، ونكونَ من جديدٍ مادةً لغذاءٍ كائنٍ من لحمٍ ودمٍّ، فنعودَ نتدفَّقُ بشراايينَ حيَّةٍ وهكذا إلى ما شاءَ اللهُ.

الحُبُّ فينا ما هوَ إلّا محطَّاتُ عبورٍ تقودُ العاقلَ المتدبِّرَ إلى المحطَّةِ الأخيرةِ، والحقيقةُ الوحيدةُ حُبُّ اللهِ حُبُّ الدّائمِ لا يقارَنُ بالزّائلِ.

ربِّ، كُلّما خالطتُ غيركَ تعبتُ وتحطَّمتُ ، كُلَّما جالستُ وجَلستُ لسواك اختنقتُ، كُلَّما تحرَّكتْ شفتايَ لغيركَ انخرسَ القلبُ، دُلَّني أنا التّائهُ الّذي ما طاوَعتهُ السُّبلُ ولا انحنَتْ أمامَهُ الطُّرقُ، حتَّى باتَ رمادًا وغَمامًا غَطَّى الرُّوحَ؛ لتمرضَ تهترئَ تتلاشى عندَ غيركَ، ربِّ، سُقني إليكَ بلا رجوعٍ فما عادَ بالقلبِ إلا الجوعُ.

المَرايا

لا نُحبُّ المَرايا لأنَّها تُظهرنا كما نحنُ فعلًا، نكرهُ صدقَها وشفافيَّةَ النَّظرَةِ، كلّنا مذنبونَ حتّى النُّخاعِ، كلُّنا مُغيَّبونَ عن الحقيقةِ المُطلقةِ، وإن فَكَّرنا بالاستيقاظِ يومًا ننزعُ الذّنوبَ ونُلقيها على الآخرِ، نحنُ يا سادةُ قمةُ الخطَأ لا يعشعشُ العبثُ فينا إلا إذا كنَّا أرضًا لهُ.

الاستيقاظُ يُشعلُ فينا رغبةَ نَفضِ فراشِنا، نحنُ بذلكَ نعتَرفُ بتحلُّلنا من ذُنوبِنا أولًا ونفضِها.

الصَّلاحُ لا يكونُ برميِ الذّنوبِ والانسحابِ ورفعِ الرَّاية البيضاءِ والتّسليمِ بأنّكَ قمةُ الطُّهرِ وما دونكَ أنجاسٌ، الصّلاحُ بالاعترافِ بطلبِ المغفرةَ مِن كُلِّ روحٍ دَنَّسناها.

لا أكرهُ بالحياةِ إلّا بَلسمَ الكلامِ في لحظةِ التَّخلي عن الذَّنبِ، لو كان اللّينُ هو الحلُّ لوجدنا في حياةِ نبيِّنا ثلاثةُ وعشرينَ عامًا من اللّين فقَط، ولما كنّا وجدنا (واللهِ لو فاطمةُ بنتُ محمدٍ سرقتْ لقطعَ محمدٌ يدَها).

لا تحطِّمْ مراياكَ بل تمعَّنْ جيدًا بالنُّدوبِ والبثور والخطوطِ؛ لتدركَ ما فاتَ وتصلحَ ، ولا تنسحب، الانسحابُ لم ولن يكونَ إصلاحًا، تَملُّصكَ من فوضاكَ عبثٌ، رتبْ ما بعثرتهُ يداكَ ثمَّ انطلقْ في حياةِ المنسلِخينَ من الصَّخبِ .

كلّنا نؤمنُ بنظرتِنَا الفريدةِ للأمورِ وننزِّهُ النَّفسَ عن باقي البشرِ لكنّا لا نعي أنَّ للبشرِ أيضًا نظرةٌ حادّةٌ وثاقبةٌ تستطيعُ اختراقَ عيبنا، عندما تُؤمنُ بأنَّ أشدّ النَّاسِ حقًّا هم المعترفونَ عندها تتعافى من ماضيكَ ويزهِرُ حاضرُكَ.

الحبيبُ الحقُّ هو من يزجركَ بالزَّلاتِ ويسندكَ في السَّقطاتِ، ويرقصُ طَربًا بالأفراحِ، فَمن تركَ دورًا واحدًا منها، فلا يسمو لذلكِ المكانِ.

ملحَمَةُ العنادِ

الأحلامُ نبضُ القلوبِ، هي الغَصَّةُ النائمةُ في قُعرِ قلوبِنا، تغفو لكن لا تموتُ، تُذيبُ الباطنَ تُوقِظُ ما وُلِدَ ووُئدَ من جديدٍ.

أحيانًا يَقتُلنا الطُّموحُ وشدَّةُ التَّعلُّق والسَّعيِّ، أحيانًا يَفترُ الحلمُ؛ لشدَّةِ ما حَمَلنَاهُ فوقَ ظُهورِنا وأصرَّ على الهروبِ، تبردُ الرُّوحُ من شدَّةِ الاشتعالِ.

الحلمُ الخالدُ هو ما كانَ علنًا وقويًّا ومتحدِّيًا ستارَ الخوفِ، من تَحدَّى الجميعَ ؛ ليُخَلِّدَ للحلالِ والأحلامِ مجدَهم، وَيُنيرَ الدَّربَ حتّى لَحظَة الأفولِ.

نحاوِلُ جمعَ شتاتِ الحلمِ لنزدادَ بُعدًا وتلاشيًا، هذه الفكرَةُ مُرعِبةٌ، كيفَ لأرضٍ كانَت حِضنَ بذارِنا، وسقاها دَمعُنا تباعًا من روحِهِ، كيف لها أن تأتيَ بِقسوةِ التَّصحُّرِ هذهِ؟

نحوَ حُلُميَ أرنو - معذَّبٌ من يحيا وفي داخله أحلامٌ عنيدةٌ، يتناسى ولا ينسى الهدف- مُتقلِّبونَ فوقَ جمرِ الغدِ من هُم مثليَ، لا حلَّ لهم إلا الصُّعودُ، حتّى لو احتاجَ الصّعودَ كُلَّ الأعوامِ، عليهم اعتناقُ الاستمرارِ دينًا ومذهبًا، والسَّيرُ دونَ إحصاءِ الخساراتِ، متعبونَ نحنُ ولا راحةَ لعنادِنا سِوى الاعتيادِ.

مفاتِنُ الأرضِ

مُشتاقٌ لأرضِ الهوى لسهلٍ حَوى الألوانَ دونَ فوضى، مُشتاقٌ وشوقيَ للأرضِ أقسَى من شوقيَ التَّائِهِ للمطرِ.

العِشقُ مع الإغراءِ والإغواءِ ليسَ حكرًا على أجسادِ النِّساءِ، بل هو أشدُّ لسعًا واكتواءً عندما يكونُ لأرضٍ جمَعتْ مفاتِنَ النِّساءِ كافةً منذُ خَلقِ البسيطةِ إلى لحظةِ سقوطِ دَمعةِ الشَّوقِ الأولى.

الأرضُ أغنى؛ لأنَّ سطحَها خصبٌ أكثرَ من رَحِمِ شابةٍ ممشوقةِ القدِّ والقَوامِ، وباطنُ الأرضِ أعرقُ قيمةً وكنوزًا من بواطِنِ الحوريَّاتِ والجواري، وإخلاصُ الأرضِ للعطاءِ كإخلاصِ يوسفَ لربِّهِ أمَامَ الإغواءِ.

مُوجِعٌ العناقُ معَ الهواءِ واحتضانِ الفراغِ واستحضارِ نهرٍ غابَ عنِ العيونِ، وبحرٍ هائجِ الذِّكرَى وغاباتٍ تَعزِفُ حقيقةَ الماضِي دونَ حضورٍ، وجزُرٍ اختارَت حياةَ الرُّهبانِ في قاعِ عقولِنا وتَصوّفٌ حفَّ اللِّقاءِ.

هُويَّةُ أرضِ الميلادِ واحدةٌ لا تَتَغيَّرُ ولا تَتجزَّأُ، وهُويَّةُ العشقِ مجروحةٌ لا تَندَملُ ولا الجرحُ يُخَاطُ.

ضعيفٌ نبضيَ أمامَ لسعةِ الشَّوقِ الحارِقةِ، ضعيفٌ أمامَ الصُّورِ والذّكرياتِ، الّذي اخترعَ الصُّورَ لا يعلمُ أنَّهُ خَلَّدَ معها مرارةَ الفرحِ، فالذّكرى الجميلةُ مؤلمةٌ أكثر، تُشعِرُكَ بغصةٍ تعلو حَلقَكَ لا تستطيعُ معَها بلعَ الحياةِ على مهلٍ ولا الاختناقَ.

ضعيفٌ قلبيَ أمامَ الشَّواطِئ الرَّاحلةِ والغاباتِ المُنسحبةِ من صراعِ التَّاريخِ، ضعيفٌ قلبيَ لا يرجو إلا الوصالَ.

أتعبَهُ الفرحُ القديمُ والحياةُ الّتي وهبَتهُ عُمقَ التَّمني ورَحلَت، أرهقَتهُ زُرقَةُ السَّماءِ المغادرةِ وموجَ البِحارِ المُحمّلِ بأساطيرِ المدنِ الغارقةِ.

أدمَتهُ زهورُ الحدائقِ المُودعةِ، مُرهَقٌ مِن كمِّ الذّكرَى والذّكرياتِ، كُلّما كانت الذّكرَى مُفعَمةً بالأحلامِ كُلما كانَت أَشدَّ اشتعالًا.

فنحنُ نَنسى الألمَ لنتجاوَزَ، ولكن كيفَ نُقنِعُ القلبَ قبلَ العقلِ بنسيانِ الجمالِ والحُبِّ والفرحِ الّذي حَواهُ واحتواهُ، هلْ نتجاوزُ الفرح السّابقَ؟ وإذا فعلنا فإلى أين سنمضي؟ إلى الفراغ الموجودَ بينَ الأرضِ والسَّماءِ.

خارِج التَّوقُّعِ

جاءَتهُ على استحياءٍ، ترنو لأُفقِ الحياةِ بحُبٍّ، تَأملُ من طُهرِ قلبِها أن تهِبَ لهُ وطنًا يهيمُ به ويذرِفُ حصادَهُ الخَصبَ .

ابتسمَ لها بلهفةِ مارِدٍ خَرَجَ من قُمقمهِ بعدَ ألفِ سنةٍ من أسرِ سليمانَ لهُ، يَتنفَّسُ الصُّعداءَ واهبًا ليدِها الَّتي فكَّت عُقدةَ رباطهِ قُبلَةَ الأمانِي المُحقَّقةِ، فكانا مَربطَ الحُبِّ ونبراسَ البسمةِ .

ومضتِ الأيَّامُ حتَّى طرَقتْ سكونَ دربِهم ليالٍ سوداءُ، سلبَتهُم جدائلَ الحُبّ الّتي عقدوها، وأطفَأتْ شُعلةَ المصباحِ، غادرَهم الشَّغفُ فباتوا أجسادًا فارِغةً منَ الحياةِ.

ونحنُ نرقبُ قصصَ العشقِ الأطهرِ، لا نُحرِّكُ إلا يدَ الشَّرِّ ومشعلَ الشّرارِ، نتركُهم موتًى بعدَ أن وهبوا للحياةِ حياةً، نَبخلُ بكلمةِ خيرٍ وحقٍّ تستطيعُ إعمارَ آثارِ زلزالٍ.

وهكذا يَعبُرُ الجميعُ ركامًا فوق رُكامٍ، لا الحُبُّ يَبعثُنا ولا نحنُ نبعثُ للكونِ حياةً.

الرَّحيل

تَمهَّلْ تَمهَّلْ فرماديةُ الحياةِ لا تسمو بالمتعجِّلينَ، ارتَشفْ الحياةَ على مهلٍ ولا تأخذْنِي على مَحملِ الجدِّ.

كُن ركوةَ الصَّبرِ على عتباتِ الصَّعبِ، كُنْ ذاك المُتأمِّلَ المُتمعِّنَ المُتفكِّرَ عندما يَنضَبُ الصَّبرُ، كنْ ذاتي في العتمةِ وقدمايَ في الطَّريقِ، كُنْ كُلَّ شيءٍ مادامَ اللّاشيءُ نهاياتَنا ومادامَ السَّعيُ مَصبُّهُ الرَّحيلُ.

يغادِرُنا الوقتُ لنغادِرَ الكونَ دونَ إدراكٍ أو تدبُّرٍ للعالَمِ الّذي دخلنَاه حتَّى تَداخَلنا بظلالِهِ .

دَقَّتْ نهايةُ ساعاتِ الضِّيافةِ؛ لتحينَ دقائقُ الوداعِ، لا تَنسَ أنَّكَ ضيفٌ ولا بُدَّ للمُرتَحلِ من الرَّحيلِ، بخيوطِ اللَّحظَةِ الأخيرةِ وقِّعْ ما يستحقُ قدومَكَ وما يُوازي بُعدَ الرَّحيلِ .

تَمَهَّلْ في القدومِ والرَّحيلِ، ضَعْ بقاياكَ على الرُّفوفِ العتيقةِ ولا تَنفضْ غبارَ الدَّهرِ، فالتَّاريخُ أصيلٌ مُغبَرٌّ عتيقٌ لا يأبَهُ بالبريقِ، لأنَّ البريقَ بلا عراقةٍ بلا ماضٍ دخيلٌ، تَمَهَّلْ فكُلُّنا حُفاةٌ لا نملِكُ الرَّاحلةَ ولا البعيرَ.

ليلةُ حواءَ

هُنا بدفءِ حُبٍّ عارمٍ اِلتفَّ حوليَ، هُنا كانَ العمرُ واقفًا صامتًا تمامًا، عَقارِبُهُ تخجَلُ أن تُحَرِّكَ ذاتَها، تثاقلَتْ خُطواتُها وارتمَتْ تَرقُبُنا تتأمَّلُ جسدَكَ الحنونَ وهو يحتوي آخرَ صبريَ ونوميَ.

تَلتَفِتُ عقاربُ حياتِنا إلى ما كُنّا نَرمقهُ مِن بعيدٍ، تَنسى أنَّها مجرَّدُ وقتٍ، أنَّها زمنٌ ولا بُدَّ لهُ منَ العبورِ، تُناظرُ قمرًا أَلجَمَنا عنِ الكلامِ والأنفاسِ والرَّمشِ، كانَ بدرًا ساطعًا مُتحدِّيًا الكونَ معانقًا رؤوسَ الجبالِ وأشجارَها، تلكُ الجِبالُ المُرتَفعةُ حدَّ الجنونِ، المُكتسِيةِ حدَّ التُّخمةِ ثوبَها الأخضرَ، المُتفجِّرةِ بأصواتِ الينابيعِ الصَّغيرةِ الغضّةِ، والمُلتحفَةِ سوادَ اللّيلِ الحالكِ.

كُنّا هناكَ ثلاثتُنا: أنا وأنتَ والقمرُ، فوقَ شرفةٍ صغيرةٍ لكوخٍ مُعتَّقٍ بسنواتٍ وذكرياتٍ لا يستطيعُ الزَّمنُ أن يحملَ وزرَ نسيانِها.

كُنّا حبيبي كما لم نكنْ مِن قبلُ، أنا أعلمُ جيدًا أنَّها ليلةٌ مِن تاريخيَ كُلِّهِ ولن تُعادَ وإنْ عادتِ الأماكنُ، فلَن أغفوَ على خَدِّ الجنَّةِ، ولنْ يداعبَ وجهيَ نسيمُ الإلهِ الأوَّلِ، لنْ تُراقصَ أنغامُ فيروزَ أُذنايَ بهذهِ اللهفة والشُّرودِ، كأنِّي الآنَ اكتشفْتُ فيروزَ، بلِ الآنَ وُلِدَ صوتُها.

هذهِ اللَّيلةُ عذراءُ بكلِّ تفاصيلها، هذه اللَّيلةُ عروسٌ شرقيّةٌ تَجرُّ أحلامًا بحجمِ أثوابِ العرائسِ كافةً.

في هذه اللَّيلةِ كنّا نرشفُ الحُبَّ صمتًا، ويحيطُنا سوادُ ليلٍ حالكٍ، وقهوةٌ بردَتْ من انتظارِ شفاهٍ جمَّدَتها أرواحُ الجَمالِ الّتي اجتمعَت أمامَها.

هذه اللَّيلةُ كُنّا نَحضنُ العمرَ وليس الجسدَ، نَحضُنهُ بهمسٍ يُلجِمُ أعتَى الشُّعراءِ، ويُسكِتُ كُلَّ المُعلَّقاتِ.

لأوَّلِ مرةٍ حبيبي أشعرُ أنَّني أتنفَّسُ النَّومَ بينَ يديكَ، وأنتَ أعلَمُ بأنِّي عنيدةٌ جِدًا ومدرَستي السَّهرُ، لأوَّلِ مرةٍ أغفو لساعاتٍ على يديكَ كانَت عُمرًا منَ الولادَةِ.

ثلاثٌ وثلاثون عامًا مرَّت على فصولِ حكايَتي، لم يطرُقْ النَّومُ جُفونيَ كما أسدَلَ كلَّ خرافاتِهِ وتعويذاتِهِ ليلَتها.

ماذا صنعتَ ليَ لأسرِقَ منَ الجنَّةِ وسادةً تَحتضِنُ رأسيَ؟

كم حزنتُ عندما استيقظتُ لأرَى نفسيَ بينَ يديكَ صائمًا عنِ الحُبِّ مُكتفيًا بالنَّظرِ، كنتَ الملكَ بلا منازعٍ، أنتَ وكوبُ قهوتِي البارِدُ والشُّرفةَ الخشبيَّةُ العتيقةُ والكوخُ الّذي حَمَلنا بأخشابِهِ النَّابِضةِ حياةً وذكرَى على ضفافِ أوزنجول.

كُنتَ السُّلطانَ الأوحدَ، أنتَ ونسماتُ الهواءِ الَّتي تَسلَّلت من فردوسِ ما لِتُلقِيَ بثقلِ جَمالها إلينا، أنتَ والقمرُ تتنازَعانِ أيِّكُما أقربُ لجسديَ: دميَ والخفقاتِ، أنتَ والنَّهرُ المُنسابُ تحتَ الشُّرفةِ وفيروزُ الَّتي صارعَ صوتُها أنغامَ النَّهرِ كُنتُم الجنَّةَ.

فيروزُ تغارُ لأوَّلِ مرةٍ تغارُ، تُلقي بلحنِها في جوفِ النَّهرِ تريدُ أن تُثبِتَ لرؤوسِ الجبالِ والأشجارِ أنَّها الأجملُ والأجدرُ بالحُبِّ.

كانَت ليلةُ الصَّمتِ بلا مُنازِعٍ، لم نتكلَّمْ عكسَ عادَتِنا، صمتٌ شرودٌ انسحابٌ كاملٌ من كلِّ الحروبِ، انغماسٌ بالأنغامِ والعتمةِ والقمرِ والشُّرفةِ الخشبيَّةِ والقدرِ.

كانَت بكلِّ حقٍّ ليلةُ ميلاديَ فلم أعِشْ قبلَها عُمرًا قطُّ.

أيمكِنُ لليلَةٍ أن تعادِلَ عُمرًا منَ الحُبِّ؟

أيمكنُ للصَّمتِ وصوتِ الطَّبيعةِ أن يَخلِقَكَ من جديدٍ؟

أتغارُ فيروزُ من غِناءِ نهرٍ؟

هل تُمنَحُ الجنَّةُ لنا ليلَةً أُخرى؟ أم سنبقى كآدمَ نرثي القدرَ.

شَرقيَّة

إذا كانَتْ أهمُّ نصائحكَ هي الزَّواجَ من أُخرى غير شرقيَّةٍ يا سيّدَ الرّجولةِ كلّها يا كامِلَ الفُحولَةِ والأصالةِ أُخبِرُكَ أنَّ الشَّرقيَّةَ، هي الحُرَّةُ، هي العراقةُ، هي الأصالةُ، هي الأمومةُ حدَّ الثَّمالةِ، هي الإخلاصُ والوفاءُ والنَّقاءُ والصَّفاءُ، هي الَّتي نذرَتْ كلَّ عذريَّةِ الدُّنيا لتُخضِعَها بينَ يَديكَ تَكلَى بكلِّ شجونِ العطاءِ، هي جسورُ الجنَّةِ ومحطاتُ الخلودِ، هيَ الَّتي تَحارِبُ طوالَ النَّهارِ تعبًا وكدًّا.

تُحاوِلُ الهروبَ من مَملَكَتِكَ؛ لتسقطَ قتيلةَ هواكَ، هي ثمارُ الخُلدِ مُقدَّمَةً على طبقِ الحياةِ بمرِّها وحُلوِها، هيَ مَن سَطَّرَتْ منكَ حروفًا مدادُها دَمُ العُمرِ خالِدًا بينَ يديكَ، هيَ الأمُّ والبنتُ والحُبُّ والدِّفءُ، وأيُّ تشويهٍ نالَ من وجهِها وقوامِها هو نتاجُكَ ومن مخلَّفاتكَ سيِّدي.

الشَّرقيَّةُ هي لوحةُ العصورِ كاملةً مُختزلةً كلَّ الأبجدياتِ الرَّافديَّةِ.

سيِّدي نُصِبَتْ لنساءِ الشَّرقِ أهراماتُ التَّاريخِ، و دَسَسنَا سياسَتنا في فراعنةِ الكونِ.

الشَّرقيَّةُ سيِّدي هيَ مَن قادَتِ الجيوشَ، هيَ حرَّةُ الماضي ، وملكةُ تَدمُرَ، وحاكمةُ مصرَ، وبلقيسُ اليمنِ، هيَ أمُّ الشَّهيدِ على عتباتِ القِبلَةِ الأولى، هيَ أنفاسُ أمِّكَ الَّتي اختارَت ثوبَ الثَّرى فداءً لجيلٍ حلَّ وأتَى للدّنيا من رحمِها الطَّاهرِ، صَدِّقنِي هيَ أطلسُ النِّساءِ، ورغمَ الرُّجولةِ ما زالَتْ آخرَ خطٍّ دفاعٍ لأُمَّةٍ بكامِلِها هيَ أطلسُ الكونِ سيِّدي.

نخلةٌ بالعطاءِ بالحُبِّ والأمومةِ، كالقِمَمِ باسقاتٍ نحنُ من صَنعنا الإنسانيَّة لأنَّنا نصفُ البشريَّةِ، ووهَبنا النّصفَ الآخرَ الحياةَ.

كونُكِ أُنثى يُعني الكمالَ والتَّمامَ البشريَّ، فما خُلِقتِ أبدًا ناقصةً، بل أنتِ من تملكينَ مفاتيحَ السَّعادةِ، كوني نخلةً تسابقُ الكواكبَ عنفوانًا، فمن شكَّ في كمالكِ ناقصٌ عقيمُ الفكرِ.

أنا الأُنثى أوَّلًا أنا شرقيَّةُ العيونِ أَندلسيَّةُ الثَّغرِ، أنا الكلُّ وأنتَ امتداديَ، فلا تحاول كسرَ ريشةِ الرَّسامِ؛ لأنَّهُ بالفحمِ سيرسمُ، بالدَّمِ سيرسمُ، بأوراقِ الأشجار سيرسمُ.

توحَّدْ لنُلقي على أوراقِ الدُّنيا أجملَ اللَّحظاتِ، كُنْ لوحةً بيضاءَ فارغةً أزَيّنُها بكلِّ الألوانِ، كنْ حُبِّيَ ونبضِيَ، كنْ نصفيَ، كُنْ معي كلَّ الكمالِ، ولا تكسرْ عودًا اعتادَ لمسَ الشَّمسِ.

الصّباحُ

الصَّباحُ دائمًا يُذكِّرُكَ بكلِّ مَن مرَّ ورحلَ، بكلِّ من غابَ حتّى أطربَتْ قرعَ آثارِهِ مسامعَ الدّنيا وأبكتني من غيرِ دمعٍ، صباحٌ يحمِلُ لبَّ شعورٍ لامسَ عمرًا مضَى، لا يملُّ ولا يَكلُّ من المُثولِ أمامِيَ .

صباحُ التَّوفيقِ بكلّ ما للحروفِ من روحٍ، صباحُ نورٍ يتدفَّقُ من عروقِ دَمِنا وعصفِ قلوبِنا، صباحُ أملٍ يُنسَجُ من تَشرُّدِنا، صباحٌ مُكلَّلٌ بحباتِ مطرٍ تغازلُ وجهَ الأرضِ شوقًا، صباحُ حنينٍ لكلِّ ما كنتُ أحياهُ من حريَّةٍ، صباحُكم نجوى وألحانُ روحٍ دَارَتْ حُزنَ الأرضِ عُمرًا وأعتَقَتْ أحلامًا أثقَلتْ كاهِلها.

صباحُ ربِّي أرحمُ، يبدأُ دونَ يأسٍ، يوميًّا يُشرقُ ويزورُ قاطعي الوصلِ والوصالِ، يزورُنا دون عتابٍ لا يحاولُ السَّؤالَ، يستمرُّ ببثِّ الحياةِ لا ينتظرُ مبادلةَ العطاءِ أو حفظَ الجميلِ.

صباحٌ نديٌّ بِطُهرِ الفطرَةِ وإخلاصِ البداياتِ، صباحُ المُدَثَّرينَ بالوجعِ وكنفِ السَّماءِ، دُمتُم بشغفٍ وأملٍ واستمرارٍ.

نُسخةٌ مُشوَّهةٌ

لن نكونَ إلا نسخةً من ذاتِنا وشعورِنا وحواسِنا وإدراكِنا، مهما رَفضْنا ضَعفَنا وتمرّدنا على نقصِنا ودَارَيْنا جُوعَنا وسابَقنا الخُطوَةَ لنعلوَ كما علا وجهُ القمرِ لَن نكونَ إلا نحنُ.

تَختَرِقُنا التَّجارِبُ وتَصقُلنا الحياةُ ويرفَعُنا العلمِ وتدوسُنا الأيَّامُ، لكن رغمَ كلِّ شيءٍ لن نكونَ إلّا أنفسنا.

محاولاتُ اللّحاقِ بقافلةٍ لستَ أهلًا لها ولا حوَتْ ركبَكَ ودربكَ، هو لهاثٌ لا جدوَى منهُ إلا إهانةَ نفسِكَ، وليسَ المطلوبُ هُنا الاستسلامُ وعدمُ المحاولةِ، بلِ الأجدرُ أنْ تضعَ نفسكَ حيثُ تكونُ مَلِكًا مُبجَّلًا لا تابعًا وجنديًّا راكدًا خلفَ قادةٍ لا يرونَ امتدادَكَ.

كلُّنا نملكُ مَلكاتٍ وهباتٍ ومزايا نبحرُ فيها وتنبضُ فينا، والحاذِقُ من ينطَلقُ بشغفٍ وعشقٍ لا محدودٍ، أمّا كونُكَ غثاءُ سيلٍ يجري خلفَ توقيعِ غيرِكَ لتُثبتَ نقصكَ، فما هوَ إلّا احتقارٌ لذاتِكَ؛ لأنَّ مَن جُبِلَ وخاضَ وغَرقَ في فطرتهِ الَّتي فُطِرَ عليها ومارسَها عِلمًا وعملًا وشغفًا ، ووهبَ أغلى ما يملكُ من سنواتِ عمرهِ حُبًّا وهُيامًا بهدفهِ ليسَ كمَن ظنَّ أنَّهُ أهلٌ لهُ وما هوَ بأهلٍ ولا عالِم ولا مدرِك حتَّى لقوانينَ عشقِهِ.

المغفَّلُ من وَلَجَ فنونًا لا يدركُ حتَّى مبدأها ولا حَجَرَها الأساسَ والأوَّلَ وأصولَ صَنعَتِها.

المغفَّلُ من يَفتحُ أبوابًا لا يعلمُ لها مِفتاحًا، ومن يُجاري ضيقَ عينيهِ فيذلُّ نفسهُ العزيزةَ؛ ليعتَليَ عروشَ مجدٍ صنعَها غيرُهُ بشقِّ الأنفُسِ والأرواحِ وذابَ فيها حتَّى باتَ خليطًا متجانسًا مع

ما يهوَى ويعشقُ، المُغفَّلُ من يأتي على بِساطِ الغباءِ؛ لينثُرَ إنجازًا ظنَّ أنّهُ إنجازُ ، من ساوَى نفسهُ بعاشقٍ غارقٍ في بواطنِ الهوايَةِ.

كُنْ ذاتكَ لأنَّ اللهَ لا يرفعُ إلا المخلصينَ الصَّادقينَ الواهبينَ أعمارَهُم سعيًا لأهدافِهم، كلُّ علوٍّ دونَ أساسٍ متينٍ صلبٍ مُحاطٍ بعلمٍ دقيقٍ لما تهواهُ ما هوُ إلا سقوطٌ مُخزٍ.

فضعْ نفسكَ حيثُ تُجابِهُ الكلَّ، وتَتَحدَّى مُستخدمًا أشدَّ الأسلحةِ تمرُّسًا ولا تضعْها حيثُ لا تعلمُ، ولا تدركُ المسمياتِ الأولى والبديهياتِ وأساسَ الأرضِ والمكانِ وإنْ أغراكَ بريقُ غيركَ وأَلَقَهُ على هذهِ الأرضِ، فاعلمْ أنَّهُ باعَ أثمنَ ما يملكُ من عمرهِ فداءً لوجودِهِ عليها ورَفْعِ راياتهِ فوقها، ذرفَ عمرًا أطولَ من عمرِ الرُّوايةِ؛ ليكونَ ذاتهُ وذاتهُ فقط وأنتَ ما أنتَ إلّا مُقلِّدٌ غَرٌّ اشترى أن يكونَ يَباسًا في أرضٍ لا جذورَ لديهَ فيها ولا حصادَ.

التّخلّي

سياسةُ الهروبِ ليستْ للجبناءِ، الهروبُ أحيانًا يكون رايةَ الشُّجعانِ المُنتصبةِ بقوةٍ، المُنسَحِبُ اختارَ الخسارةَ الأقلَّ ألمًا؛ ليدفنَ طريقَ الخسارةِ الأعظمِ.

الجنينُ الّذي نما داخلَ أحشاءِ أُمِّهِ وشارَكها حَياتَها وباتَ أثمنَ ما تملكُ، تخيَّلهُ، رفضَ الانسحابَ وأَصرَّ على البقاءِ داخلَ الرَّحمِ حُبًّا وتعلقًا ورفضًا لتركِها، ماذا سيكونُ وضعُ الرَّحمِ الأثمنِ في العالمِ؟

إنْ لم تتخلَّ عنهُ وتغادِرهُ بكلِّ قوةٍ ونزاعٍ وألَمٍ ستموتُ أنتَ وأَغلى روحٍ لديكَ، وهُنا يكمنُ جمالُ وإعجازُ الهروبِ والبُعد والتّركِ فبعضُ التَّعلُّقِ موتٌ، القوَّةُ لا تنبثقُ من إصرارِ المُدمِّرِ على الدَّمارِ، أو الهادئ على الهدوءِ أكثرَ.

فالفرقُ صارخٌ بين شجاعةِ المبدأِ الحقِّ وبين ثباتِ الرّاجفينَ من نظراتِ البشرِ، تعوَّدْ سياسة التَّخلّي، حتَّى الحلمَ الّذي يَقهرُكَ ويحرقكَ، والحبيبُ الّذي يتمتعَ بكيِّ قلبكَ، واليدُ الّتي يجبُ قَطعها من حياتكَ ولا تُقطَع، كلّهم عَلِّمهم رُقيَّ التَّخلّي، فمن تركَ مَلَكَ.

ولا تخفْ أبدًا فسُنَّةُ الحياةِ أنْ يأتينا ما أَدمَنا الحلمَ بهِ لاهثًا لحظةَ إلقائِهِ أرضًا، وأن نُعشَقَ في الوداعِ أكثرَ، وأن نُذكَرَ بعدَ الموتِ، وأَن نندمَ بعدَ الخطيئةِ.

تسلَّحْ بالتّركِ كُلَّما وجدكَ البشرُ خائفًا مذعورًا من الخسارةِ، كُلَّما ضربوكَ في عقرِها، لكن عندما تَحرِقُ أَمامَ الجميعِ كلَّ

المكاسبِ وتدوسُ من ظنَّ أَنَّهُ لا يهينُ فأهانَكَ، وتتابعُ خُطاكَ مُتخطِّيًا ما ظنّوهُ رعبَكَ، عندها تعجزُ عقولُهم عن حربِكَ.

وهل يُحارَبُ العاري بالثّيابِ؟ والميِّتُ بخطفِ الرُّوح؟ هل يُحارَبُ أَيُّوبُ بالصَّبرِ؟ وهل يرجفُ المُنتحِرُ خوفًا على مفاتيحِ قصرِهِ؟ عندما يعجزُ القدرُ والبشرُ عن محارَبتكَ بما غلا على قلبِكَ، عندها يأتيكَ كلُّ شيءٍ زاحفًا وستدرِكُ أَنَّهم لم يكونوا شيئًا قطُّ.

الحَسرَة

كم أنتِ دافئةٌ حارَّةٌ يائسةٌ! تختزلينَ بجريانكِ على خدي لغةَ سنينِ نامَت داخلي وثارتْ أعوامًا ، مفعمةٌ بالحسرةِ باردةٌ من طولِ الانتظارِ، تَسقطينَ دائمًا من مُقلةٍ حرَّى كأنَّكِ راياتُ الانكسارِ الَّتي تأبَّى عليَّ وعلى أحلامِ الطُّفولةِ إلا نثرَ الغبارِ.

اعتدتُكِ صَدِّقيني حتَّى باتَ جمرُ انحدارِكِ من عيونٍ ناضلتِ الصُّمودَ جليدَ جذوريَ؛ لنوفِّرَ عليكِ احتشاد مشاعرِ اليأسِ وعلى ما تبقى من روحي أنفاسُ الخذلانِ، فكلُّ كونيَ وعالَمُكِ لا يسمع النَّحيبَ، وما صوتيَ إلَّا همساتٌ خرساءُ تاهَت في حرارتِك دمعَتي.

كَسْرُنا ربُّ الكونِ يَجبِرُهُ، والبيتُ يَدايَ تَبنيهِ، لا ترجُ جبرًا فربُّ الكونِ جابرنا، ولا تدنُ من أرضٍ تموتُ بذارُكَ فيها.

لا تَلمْ خرابًا ألحقَهُ الغريبُ بكهفِكَ، أنتَ سلَّمتَ المفتاحَ وتركتَ البابَ مُشرعًا.

من كانَ أهلًا للقلبِ يسكُنهُ، وإنْ أُغلَقتَ تلابيبَ الرُّوحِ، فلا بدَّ للمدنِ من فاتحٍ متمرِّسٍ وللقلاعِ الحَصينةِ من مُقتَحمٍ، ولِصُلبِ المداخلِ منجنيقٌ هدّافٌ، فلا تُتعِبْ النَّفسَ حسراتٍ عليهم إنْ لمْ يبذلوا الصَّعبَ المُمتَنعَ، فكيف سيحافظونَ على السّهلِ المُتاحِ؟

هكذا نحنُ البشرُ مصهورونَ ومُذابونَ معَ البعيدِ الصَّعبِ، مع المُتعِبِ، لا تُعجِبنا الأبوابُ المُشرَعةُ والطُّرقُ السَّهلةُ، لا نشعرُ بالمغامرةِ والإثارةِ والحماسِ إلا معَ الصَّعبِ .

ماذا تتوقَّعُ من أبناءِ آدمَ وبناتِ حواءَ؟ ماذا ترجو مِّمَن غادرَ الجَنَّةَ لوعثاءِ الدُّنيا والأرضِ؟

يجري بينَ جيناتِنا عِشقُ المستحيلِ حتَّى لو كانَ علقمًا.

من قلبيَ أقولُ: أغلِقْ فؤادَك فلا سكنٌ ولا بيتٌ يليقُ بروحٍ عابرةٍ، البيوتُ أغلى من العابرينَ.

ارحمْ جدرانًا اللهَ بانيها ، رمِّمْ عوارضكَ وامسحْ دمعَها فالرَّوحُ مُتعَبةٌ وربُّ العرشِ حاميها، اجبُرْ بيديكَ كَسرَ الفؤادِ فما عاد للدِّارِ دمعٌ يجري في مآقيها.

العَبَق

أطلِقْ رائحةَ الصُّبحِ الدّافئِ المُعطَّرِ بشذا الوطنِ قممٌ أنا فيكَ أنتَ، أعلو وأعلو أسطحَ السَّماءِ لعلِّي أداعبُ وجهَ القمرِ.

وعندَ انكساري أنتَ بحريَ أغرقُ بحثًا عن سُفني الّتي حطَّمتها أعاصيركَ، ألوانُ الدَّنيا مُزجِت من دمائكَ ألهثُ أدنو تصرخُ رُوحي تتمزَّقُ أجزائيَ؛ لتتنفَّسَ بردَ الصَّباحِ فسلامٌ عليكَ وعلى مدنِ البحرِ السَّلامُ .

أحسدُ مدنَ البحرِ تلكَ الّتي تُلقِي بجدائلِ شعرِها المُحمَرِ بينَ أناملِ البحرِ، يعبثُ الموجُ الأزرقُ بِها، يتفرَّدُ مُتباهيًا مُغترًا برجولتهِ العُظمَى، الّتي أهدَتْ لها أعظمَ المُدنِ كنزَ عذريَّتها.

فلا يسأمُ من الصَّخبِ بشواطئَ ثكلى من الأنقاضِ، فهوَ يعلمُ أنَّ مُدنَهُ لن تُغادرَ البحرَ ولنْ تهجُرَ القبطانَ، يقينُهُ عظيمٌ واستسلامُ رمالِ البحرِ لهُ أعظمُ.

هُوَ

هُوَ الّذي أماتَ وأحيا، فكيفَ أركنُ إلى ركنٍ آخرَ وهوَ الرُّكنُ الشَّديدُ، مَن بَثَقَ بذارَ الأرضِ أشجارًا شامخاتٍ، وأرحامَ النّساءِ أرواحًا نابضاتٍ، ودروبَ الأنبياءِ بِعصا الإعجازِ.

كيف نلجأُ لمن لا مَلجأ لهُ، ونخافُ المخلوقَ، أليسَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوى أولَى؟

كلُّ زاويةٍ رَكَنتُ أحلاميَ فيها على بشرٍ سقطَتْ وذوَتْ كما تذِرُ الرِّياحُ حفنةَ أتربةٍ، كلّ عِلمٍ نَصَّبتُهُ للهِ صَمَدَ وتحدَّى العواصفَ.

هوَ عليهِ هَيّنٌ، فما بالكَ تُناظرُ وتأملُ حُلمًا من خَلْقٍ هيِّنٍ!

ما بالكَ تفرِدُ البساطَ للملوكِ الفانيةِ والحشودِ الرَّاميةَ نحوَ الأدنى؟ قَزِّمْ العبدَ يُعليكَ المَعبود.

المَساحيقُ

فنُّ المتعةِ وتَلذُّذِ العطاءِ لنْ تشعرَ بهِ ما دامَ شِعارُكَ الكسبُ، فُطِرَ الكونُ على المنحِ، الرَّبيعُ لا يملُّ من العطاءِ، كلُّ عامٍ يزهرُ يثمرُ، والشَّتاءُ يُمطِرُ ويثلجُ القلوبَ العطشَى .

مخلوقاتُ اللهِ تُعطي لا تَملُّ، والإنسانُ يَسلِبُ ولا يَكلُّ، لنْ تَذوقَ شهدَ الحياةِ مادمتَ قابضَ اليدِ .

العطاءُ قيثارةٌ تعزِفُ لحنَ الرِّضا والسَّلامِ، كُنْ بذرةَ قمحٍ، تعلمُ جيدًا نهايتَها تحتَ المِدراسِ، لكنَّها تشقُّ الأرضَ وتفضُّ العدمَ؛ لتصعدَ نحوَ الشَّمسِ والحياةِ.

المِحَنُ هيَ مَن تزيلُ قشورَنا وتُظهِرُ الألوانَ الحقيقيَّةَ الّتي نحاولُ تلطيخها بكلِّ أنواعِ المساحيقِ ذاتِ النُّخبةِ السَّيِّئةِ التَّصنيعِ الباهتَةِ الجمالِ .

المِحنُ هيَ هبةُ صدقٍ يُلقيها اللهُ لتضيءَ الطّريقَ للعيونِ المُغيَّبةِ عن الضّوءِ والشَّمس، وتظهرَ معدنَ العطاءِ النَّبيلِ.

غريبةٌ الحياةُ ونحنُ أغربُ ما فيها، نملِكُ القُدرةَ على التّلوِّنِ بكلِّ طيفٍ ولونٍ وشكلٍ، نُعطِي عندما نُعطَى ولا ندرِكُ أَنَّ الحُرَّ يأبى الشُّروطَ في الكرمِ، كنتُ أتمنَّى طوالَ حياتيَ أنْ أبقَى صلبةَ القواعدِ غيرَ قابلةٍ للاهتزازِ دائمةَ العطاءِ، لكن يبدو أنَّنا نحيا بزمنِ الزّلازِلِ، لا شيءَ ثابتٌ ، ولا كَونَ صادقٌ، ولا عطاءَ مستمرٌّ، وأوَّلُ الألوانِ نحنُ، وأوَّلُ الرَّاياتِ المرفوعةِ والمدفوعةِ راياتُنا.

نَعجزُ عنِ الصُّمودِ ننَسى ما نَشَأَنا عليهِ، تجرفُنا تجاربُ السُّوءِ تُغيِّرُ ملامِحَنا، فَنعجزُ عنِ العودةِ كما كنَّا، نَقفُ على أبوابِ القلاعِ القديمةِ نَتَنهَّدُ ذكرَى ما تَربينَا عليهِ.

إليكَ

إليكَ يا منْ طَرقْتَ أبوابَ البداياتِ الغَضَّةَ، وقطفتَ عمرَ الطُّفولةِ المُلتحِفةِ رداءَ الأنوثةِ.

إليكَ رحلَ الذّهنُ وارتحلَ، مُشتاقٌ لجنونِ اللَّهفةِ وسذاجةِ العمرِ القديمِ .

إليكَ أكتبُ وقَلَّما كتبتُكَ، يرفضُ عقلي نثرَكَ على ورقٍ؛ لأنَّهُ يعلَمُ طعمَ الذّكرَى جيدًا، يدرِكُ حجمَ الأيَّامِ ووجعَ الضّحكةِ، يهابُ طيفكَ فيرفضُ حلولَكَ زائرًا عقليَ، لا تقوى الأنفاسُ على هوائِكَ الرَّطبِ وقوةِ الحضورِ.

أَرفُضكَ مِرارًا أرفضُ حرفَكَ واسمكَ والكلماتِ، لا قوةَ لديَّ، إلى اليومِ مُفلِسةٌ لا أملكُ اليراعَ، فسهمُ عينيكَ يُلجِمُ الحروفَ والشَّفاهَ.

أنا جاريةُ العربيَّةِ ما زلتُ إلى اليومِ أقولُ:" يا سيدَ الكلماتِ هبني فرصةً حتَى يذاكِرَ درسَهُ العصفورُ".

لا تضحكْ هرِمتُ ولمْ تهرَم رجفةُ خوفيَ والجنونِ.

إليكَ أقولُ: وداعًا يا وجعَ الماضي، فمارِدُ الكلامِ يخشَى الوقوفَ على أعتابِكَ أكثرَ من ذلكَ.

الزَّمنُ

تخونُنَا الأيَّامُ تُعطينا في أوّلِ محطاتِها شوقَ المُتيَّمِ وقوَّةَ الصَّخرِ وإرادةَ الأنبياءِ، نشعرُ بما نَملكُ بالأمانِ؛ فنقتَحِمُ سردابَها صاحبَ المدخلِ الأنيقِ الجميلِ.

يشدُّنا الفضولُ، نَلِجُ فيه دونَ أن نتسلّحَ بشيءٍ أو نُبقي خارجَ السِّردابِ أملًا وذخيرةً تُعينُنا على رحلةِ العودةِ، ندخلهُ بكاملِ عَتادِنا ومالِنا، حتَّى يبتَلعنا الظَّلامُ ونمضِي العمرَ نَتخبطُ بين جدرانهِ، نحاوِلُ الوصولَ للتمامِ والكمالِ.

لا كمالَ لديهِ يُهدى ولا تمامَ على أرضِ البشرِ، وعندَما نستسلِمُ ونؤمنُ بعبثيَّةِ الرِّحلةِ، ونأملُ أنْ نجدَ كتفًا يحملُ تَرهلاتِ جسدنا والرُّوحِ، نسقطُ في فوهةِ العجزِ ، العجز عنِ الرّؤيةِ والصُّحبة والحُبِّ والحياةِ، لا نملكُ إلَّا إخفاءَ ندوبَ الزَّمنِ والرَّحيلَ بصمتٍ، فقد بِتنا عائقًا ومانعًا لقوافلِ الحاجينَ سردابَ الحياةِ.

مُدنُ الموتِ

هيَ روحيَ الَّتي تقفُ منذُ بدءِ الخلقِ على أعتابِ كلِّ شيءٍ، أعتابِ الحلمِ والنَّشوةِ وألمِ الوصولِ، هيَ الرُّوحُ المَشطورةُ على سُلَّمِ الانتظارِ، أحرقَتها برودةُ النَّارِ التهَمتْ آمالَها على مهلٍ.

بينَ الجميعِ تقفُ مُتجمِّدةً، كانتْ أوَّلَ المنهكينَ سعيًا وإخلاصًا ووثْبًا فوقَ شوكِ الحلمِ، لكنَّ الأهدافَ مريرةٌ معلَّقةٌ بينَ الحلقِ والشِّفاهِ تخنِقنا تقتُلنا رغمَ الحياةِ.

نقفُ على رصيفِها مُخرَسي الحواسِ نَهبُ المَدى عيونًا لا تَرى وأقدامًا مَشلولَةً، لمْ نعدْ نملِكُ ما يُقالُ، نراقِبُ عبورَ الجميعِ ووصولَهم ونحنُ في كنفِ الأمواتِ أحياءٌ دونَ حياةٍ.

جميلةٌ جدًا البداياتُ البعيدةُ، والأجملُ وداعُ الغالي بأقلِّ الخسائرِ؛ ليُثمِرَ القلبُ مرةً أخرى ولو بعدَ حينٍ.

اللَّهم بُعدًا لا مُحزِنًا ولا جارحًا، بُعدًا عنِ الكلِّ والتّراقصِ معَ الرُّوحِ وخِلِّها، وعزلةً لا يقطعُ نسيجَها إلا صوتُ الحبيبِ ورقصُ أطفالِكَ وهمساتنا، بُعدًا روحيًّا يوحدكَ مع فتاتِكَ، مع ذاتِك مع آهاتِكَ.

دَعْنا نترُكُ الخَلقَ خلفَنا، ونسرِقُ من عمرِ الكون عُمرًا لنا وحدَنا صوتَنا ذاتَنا كونَنا، تعبٌ مُجالسةُ رفاتِهم ، دَعْنا كما كانَ آدمُ وكانتْ حواءُ، كأنَّ الحاء باسمِها بعثُ الحياةِ بيننا، لا تلمْ العمرَ عندما يركُضُ؛ ليُلبِسكَ ثوبَ الاندثارِ عندها لنْ تُجديَ آمالُنا.

كمْ تنمو مدنُ الموتِ داخِلنا! كمْ تسعَى حافيةَ الحواسِ! لهدمِ أشباهِ العصورِ والبشرِ، كم تَذرِفُ دمًا يَسقي صحراءَ حاضِرنا! كم تمنيْنا وشُئْنا وشاءَ الموتُ أن نحيا بلا حياةٍ، فانقسمنا لأحياءَ بلا روحٍ ولأرواحٍ بلا حياةٍ.

اعترافُ ثلاثينيَّةٍ

سنُّ العشرينَ لابدَّ وأنْ تحياهُ، لا بُدَّ وأنْ تنبضَ كاملاً، في هذا السِّنِّ، تُضحِكُكَ أتفَهُ الأمورِ وتَسلبُكَ أبسطُ المواقفِ، في هذا السِّنِّ يَشعُّ الجسدُ قوَّةً، قدرةً، رغبةً وعشقًا للجنونِ، عليكَ أنْ تعلمَ أنَّ عنفوانَ العشرينَ لا يُكرَّرُ.

لا تحزنْ على سذاجةِ فكرٍ أو طعنِ أحدٍ ،ستندَمُ إنْ حَمَّلْتَ الأمورَ أكبرَ من حجمِها، ستندَمُ لا عليها ولكن على الوقتِ الّذي ذرفتَهُ من عمرِ الحُبِّ.

لا يوجدُ وقتٌ في العشرينَ، تلكَ المرحلةُ فلكيَّة السُّرعةِ، فلا تجازِفي بالانغماسِ في عالَمِ النّساءِ سَتَلعنينَ تلكَ السَّاعة الَّتي سابقْتِ فيها عُمركِ.

حاولوا أنْ تَجمعوا كلَّ شغفِ الطُّفولةِ وطيشَ الشَّبابِ والعزفِ على ألحانِهما.

حتَّى أنتِ عزيزَتي المتزوِّجةِ لا تُرهِقي العمرَ ذوبانًا بالزَّواجِ والطَّعامِ والمطبخِ، صَدِّقيني لن يشهدَ أحدٌ لكِ بالكفاءةِ ، ولا هذا الزَّوجُ سيعيرُ العَرَقَ المتصبِّبَ منكِ بالًا، بعدَ ثاني مرةٍ تُثبتينَ للكونِ أنَّكِ نِعمُ الاختيارِ للرَّجلِ المِغوارِ.

كم كنتُ ساذجةً في العشرين! لأنَّني بحثتُ عن رضاكُم جميعًا على حسابِ زهوِ الشَّبابِ، كَم أندَمُ على كلِّ يومٍ أهدَرتُهُ بحثًا عن تقديرٍ أو انتماءٍ! صِدقًا التَّمرُّدُ والفوضَى والجنونُ هم الحياةُ.

لا تقتلوا أعمارَكم والقدرةَ في أنفاسِكم إلا للدِّين، فهو رُكنٌ لا يَنحَني ولا يُكسَرُ، تسلَّقِ الجبالَ لاعتلاءِ المرحِ والنَّبضِ.

أتعلمون ما هو النَّبضُ؟ هوَ تلكَ الخفقَةُ القويَّةُ الَّتي تَضجُّ كلُّ الأركانِ بها، تُقدِّمها لنفسِكَ تقديرًا لَها لأنَّها أنتَ.

إلى كلِّ الّذين مرُّوا على العشرين وراضيْتُهَم وصنَعْتُ لَهم وحبَكْتُ ونسجْتُ وتفنَّنْتُ ذوقًا، لكُم من قلبيَ أقولُ: تبًّا لَكُم.

لا تَحتَمِلُ هذهِ المرحلةُ سرِقةَ الثَّواني والأيَّامِ، لا تندَموا وتهدُوا العمرَ الأَلذَّ لأحدٍ، اللهُ وهَبَكَ الدَّقائِقَ تلكَ ولم يُسجِّلْ لعمرِ غيرِكَ على عمرِكَ حسابًا. لن يُدفنُوا معكَ، فإيَّاكَ أنْ تَقضِمَ أبهَى سنواتِ العمرِ لأحدٍ.

لكَ هيَ بشفَقِها بنورِها بقوتِها وصحَّتِها وكيانِها، لكَ هيَ بأرجوحَتِها وبحرِها وسيرِها وغاباتِها، فلا تذرِفْ ما لا يُعوَّضُ لتُرضيَ من يمرُّ مرورًا ميِّتًا مُزيَّفًا على عمرِكَ تارِكًا لكَ باقاتِ الحسرَةِ على شبابٍ زالَ.

حُبِّيَ الأوحَدُ

هي عشقٌ وأنفاسٌ حياتُنا، فَلنُدرِكْ منَ البدايةِ أنَّها رحلةٌ مهما كانَ نوعُها، سنشقُّ الطَّريقَ عُراةً إلَّا من أنفسِنا.

كم تَخنقُني الطُّرقُ المُقفرَةُ! وكم يتشبَّثُ قلبيَ بامتدادِ الخصبِ!

ضليعةٌ جدًا في استنشاقِ رُطوبةِ الأرضِ وتَعرُّقِ الأشجارِ، مُدمِنةٌ جنونَ الخوفِ في الغابِ، مأسورَةٌ دونَ أسرٍ أمامَ الرَّوائحِ الحُبلَى بِندَى الأرضِ.

تَهبُني الأرضُ المُلوَّنةُ ما لا يهبُهُ رجالُها كافةً، تُسقِيني رعشةَ الارتواءِ بعدَ التِّيهِ في صحراءِ سيناءَ.

تُعلِّمُني الغابُ كيفَ تكونُ الأنثَى أُنثى، وكيفَ تَهبُ للكونِ حياةً، أتنفَّسُها أراها بحاسةِ الشَّمِّ قبلَ العيونِ، موجوعٌ أنا، موجوعٌ ووجعي غربةُ أرضٍ، وشوقٌ حارقٌ لتَكويني، مَخلوقَةٌ من الأوراقِ الخضراءِ، من التُّرابِ الأحمرِ منْ عبيرِ الأرضِ بعدَ أوَّلِ شتاءٍ مُترَفِ العطاءِ.

حاوَلتُ كثيرًا التَّجرُّدَ عن خلقِ اللهِ الأوَّلِ، عنْ إيجادِ الشَّهوةِ في مفاتِنَ أُخرى، ففَشلْتُ وسقطْتُ بذنبِ القبلةِ الأولى والعشقِ الأوحدِ، لا يُشفى المُتيَّمُ بالرَّبيعِ؛ لأَنَّ الأرضَ مُخلِصَةٌ لا تعرِفُ الغدرَ، وساحرةٌ تنفِثُ غبارَ التَّعويذَةِ الأدهَى؛ لنغرَقَ فيها أكثرَ.

عندَما أرْحَلُ

بجَدليَّةٍ مُطلَقةٍ نُكرِّرُ ذاتَنا، نعيدُ الشُّعورَ وردَّاتِ الفعلِ وصدقَ المشاعرِ الأولَى وقُبحَ الإدراكِ.

نحاوِلُ التَّعلُّمَ والنُّهوضَ بعدَ كلِّ سَقطةِ شعورٍ؛ لنعاوِدَ السُّقوطَ مع الآخرينَ دونَ اتفاقٍ أو تخطيطٍ، دائمًا نعاتِبُ أرواحَنا، نطلبُ منها عدمَ الزَّلَلِ والتَّعلُّمَ من التَّجرِبةِ الأولى من الشُّعورِ الأوَّلِ، لكن دونَ جدوى، كُلُّ إنسانٍ يحملُ جيناتٍ مُحدَّدةً، ليسَ للشكلِ فقَط والخصائصِ الجسديَّةِ، ولكن للشعورِ واللَّهفةِ والإدراكِ، فيعيدُ ما جُبِلَ عليهِ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.

أحتاجُ ألفَ طعنةٍ لأَتعلَّمَ الحقدَ وألفَ غَلطةٍ لأُزيلَ ملفاتِ الغالي مِن برمجيّاتِ حياتِيَ.

كنتُ أتمنَّى أنْ أُصدُقَ نفسيَ وشعوريَ ومعتقديَ من المرَّةِ الأولى، مضى العمرُ وأنا أتمنَّى نَفسَ الحُلمِ.

عَليَّ تَلقي رسائلَ لا تُعدُّ، وأخطو خطواتٍ لا تُحصى على سُلَّمٍ دونَ عتباتٍ لأُقرِّرَ القرارَ النِّهائيَّ، وأُسلِّمَ أنَّ شعوريَ الأوَّلَ سليمٌ مُعافًى من أيِّ خللٍ.

لكن بعدَها يحصلُ ما لا أتمنَّى، بعدَها أُعلِنُ دونَ إدراكٍ ولا قصدٍ، دونَ حدودٍ أُعلِنُ نهاياتٍ مأساويَّةً.

أُزيلُ كلَّ ما يتعلَّقُ بهم، أَمحوهُ تمامًا كما لو كانَ سردًا مُصاغًا من قلمِ رصاصٍ مغشوشٍ، مسحَتْهُ أجودُ ممحاةٍ من سطوريَ.

فمهما راقبْتَ ونظرتَ وفحصتَ الورقةَ ووضعتَها تحتَ المجهَرِ لنْ تراهُم ولنْ يظهروا .

قسوةُ الإلقاءِ والنَّبذِ عنديَ شرِسةٌ ولا تُروَّضُ، لا أعلمُ تفسيرَها، ما دامتِ النِّهايةُ حكمَ إعدامٍ فلماذا أخوضُ محاولاتِ الصَّبرِ والتَّبريرِ؟!

أعودُ وأُجيبُ هذه جيناتيَ الَّتي يَظنُّ الجميعُ أنَّها سهلةٌ مُتسامحةٌ مُتناسيةٌ إلى أن يَرتَطِموا بحائطٍ فُولاذيِّ الشُّعورِ.

هل عِشناهُ؟

كَم تمنَّينا وعشنَا وشئنا !كم سكَتنا عندَ النُّطقِ، ونَطَقنا عندَ السُّكوتِ !آلمنا القيدُ وأَفرغَ ما بجوفِنا منَ التَّعبيرِ وأَلجمَ التَّنهيدةَ، تُسبَى الأَحلامُ على قارعةِ الطَّريقِ وتَتوهُ الدُّموعُ، تَضيعُ عنْ منبعِها ولا تعلَمُ المَصبَّ .تَهذِي في سكراتِها الأخيرةِ وهيَ مُغبرَّةٌ، تحفرُ الدَّربَ الأخيرَ وترحلُ، لا الأرضُ تَضمُّها ولا السَّماءُ تَسمعُ أَنينَها، مصدومةٌ ومثقَلَةُ الحملِ مُفرَغةُ الإحساسِ، يُوغلُ القَدرُ الأسودُ مِعوَلهُ في جسدِها الطَّريِّ دونَ رحمةٍ، ممنوعةٌ هيَ منَ التَّألمِ .حتّى صدى الوجعِ ممنوعٌ عليها، وقبلَ مُحاولتِها التَّمرُّدَ والهروبَ تُكتَمُ وتُعدَمُ على أعتابِ شُرفاتِ الشَّهيقِ الأخيرِ . فَتتجاوَزُ وتمضيَ مُتسائلةً: هل عشناهُ حقًّا؟ تجاوزُها عن السُّوءِ يُبقيها زهرةَ زنبقٍ عائمةً فوقَ نهرٍ دافئِ الأَحضانِ، يحمِلُها على جناحِ السَّلامِ؛ لينثُرَها على الحقولِ الخصبةِ مُفعمةً بالهدنةِ .الحياةُ معابرٌ شوكيَّةٌ حادَّةٌ، إمَّا أن تقفِزَ عندَ كلِّ معبرٍ مُحلِّقًا بأَنَفَةٍ أو تَدوسَهُ فتداسُ روحكَ حتَّى تَتَساوى معَ القاعِ، وعندَها ستنظرُ إلى مرآةِ الحياةِ مصدومًا خائفًا من وجهكَ المُشوَّهِ وذاكرتكَ السَّوداويَّةِ الخانقةِ .

سَتتنَفَّسُ لتُعيدَ الحياةَ لخلاياكَ فتجدها ميِّتَةً.

الخاتِمَةُ

في نهايةِ اللِّقاءِ الأوَّلِ أجمعُ رحاليَ مُودِّعةً لكلِّ من عاشَ سطرًا معيَ أو كلمةً، كانَ حُلوليَ على الأوراقِ صعبًا فما اعتدْتُ الأسرَ داخِلَ ورقٍ، والرَّحيلُ أصعبُ.

تردُّدُ المرةِ الأولى يخلقُ ألفَ هاجسٍ ويُجبِركَ على كسرِ ألفِ حاجزٍ وكلُّنا نرنو للكمالِ، والكمالُ ناقصٌ.

بقدرِ جزَّالةِ الشّعورِ تكسو أناملَيَ المسؤوليَّةَ، أخشَى ألَّا أكونَ أهلًا لها فأوَّلُ كتابٍ هو قرارٌ لا يقلُّ أهميَّةً عنْ أوّلِ طِفلٍ تُخرِجهُ من روحِكَ إلى الدُّنيا، هوَ مولودُكَ ويحمِلُ اسمَكَ أينَما حلَّ وارتَحلَ، وكلُّ حرفٍ فيهِ حُجَّةٌ عليكَ ، وأرجو اللهَ أنْ يكونَ ابنيَ الأوَّلَ كامِلَ الرُّوحِ فصيحَ اللُّغةِ، نابضًا بخليطِ الشُّعورِ حامِلًا أحلاميَ فوقَ جناحِ صقرٍ يصعدُ بهِ إلى رؤوسِ الجبالِ، ويضعُهُ على القمَّةِ الأعلَى ويرحلَ؛ ليتنفَّسَ هواءً أنقَى وأبرَدَ.

يرحلُ في فكرِهِ وطيفِهِ تاركًا قلمي والشِّفاهَ، فالكلماتُ لنا ما دُمنا صامتينَ وعندَ البوحِ تحلِّقُ أبعدَ.

من فيضِ القلبِ لامستُ الوَرقَ لعلِّي ألمسُكم.

الفهرس

الموضوع	رقم الصّفحة
الإهداء	٣
المقدمة	٤
عصيَ الحرفِ	٦
أَدركتُ الصّمت	٨
مُرهقةٌ أنا	١١
عرائِسُ العقولِ	١٣
تَصوُّفٌ	١٦
اللونُ أُنثى	١٧
المُعتقد	١٨
قطعة أَدبيَّة	٢٠
الهالة	٢٣
أَنا حوَّاء	٢٥
كم لبثنا؟	٢٧
الجسدُ المُهجَّر	٣٠
المزيد	٣٢
الغريب	٣٣

الفهرس

الموضوع	رقم الصّفحة
عمَّان	٣٤
حِكمةُ البعدِ	٣٦
تذكرْ	٣٨
لُطفُ اللهِ	٣٩
هَشَّةٌ أَنا	٤٠
يسكنني الهدوءُ	٤١
عُمقُ الشّعور	٤٣
حفنةٌ منَ النّساءِ	٤٥
كنْ قُوتكَ	٤٧
عم ٢٠٢٢	٤٨
الرَّماديُّ	٥٠
طيفُ التّعصب	٥٢
أنا	٥٤
هُنا القدسُ	٥٥
بنتُ أَبيها	٥٧
الاكتفاء	٥٩

الفهرس

الموضوع	رقم الصّفحة
عبثُ الخريف	٦١
الرَّحيقُ الأَوَّل	٦٣
كَفَتي الميزان	٦٤
إعجاز التّاركين	٦٦
كنْ زيتونك	٦٧
استسلام الاستمرار	٦٨
علامة استفهام	٧٠
الله	٧٢
على قيد الحياة	٧٣
لِحافُ الصّبرِ	٧٤
النَّقيض	٧٦
برد الشّتاء	٨٧
حياتي مع العظماء المائة	٨٠
مُسلسلات رمضان	٨٣
حاولوا	٨٦
النّهايات	٨٨

الفهرس

الموضوع	رقم الصّفحة
النُّدوب	٨٩
بلا حياة	٩٠
الخيار الوحيد	٩١
قيثارتي	٩٢
عتمة السّرداب	٩٣
لَمستُ الغنى	٩٤
الرَّسامُ	٩٦
القشُّ	٩٨
تَغيَّرتُ	١٠٠
سيدي الفاضل	١٠١
العَجز	١٠٢
صَباحُ الخيرِ	١٠٣
العَنيدةُ	١٠٥
دُلَّني	١٠٦
المرايا	١٠٧

الفهرس

الموضوع	رقم الصّفحة
مَلحمةُ العناد	١٠٨
مَفاتن الأَرضِ	١١٠
خارجُ التّوقع	١١٢
الرَّحيل	١١٣
ليلة حواء	١١٤
شرقيَّةٌ	١١٧
الصَّباحُ	١١٩
نُسخةٌ مُشوهةٌ	١٢٠
التّخلي	١٢٢
الحسرةُ	١٢٤
العَبق	١٢٦
هو	١٢٧
المَساحيق	١٢٨
إليكَ	١٣٠
الزَّمن	١٣١
مُدن الموتِ	١٣٢

الفهرس

الموضوع	رقم الصَّفحة
اعترافُ ثلاثينيَّة	١٣٤
حُبي الأَوحدِ	١٣٦
عندما أَرحلُ	١٣٧
هل عشناهُ	١٣٩
الخاتمةُ	١٤٠
الفهرس	١٤١